



أوراق العشب



ترجمة: سعدي يوسف

منشورات الجمل

والت ويتمان

أوراق العشب

ترجمة

سعدي يوسف

منشورات الجمل

أوراق العشب

وُلد سعدي يوسف في البصرة عام ١٩٣٤. تخرج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقّل بين عدّة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، كما تُرجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال العديد من الجوائز الأدبية في البلدان العربية والعالمية. من أعماله الأدبية وترجماته الأدبية: القرصان، شعر (١٩٥٣)؛ أغنيات ليست للآخرين، شعر (١٩٥٥)؛ قصائد مرئية، شعر (١٩٦٥)؛ نهايات الشمال الأفريقي، شعر (١٩٧٢)؛ الأخضر بن يوسف ومشاغله، شعر (١٩٧٢)؛ والت ويتمان: أوراق العشب، ترجمة (١٩٧٦)؛ نحت جدارية فائق حسن، شعر (١٩٧٤)؛ قصائد أقل صمتاً، شعر (١٩٧٩)؛ خذ وردة الثلج، خذ القيروانية، شعر (١٩٨٧)؛ قصائد باريس، قصائد إيثاكا، شعر (١٩٩٢)؛ كافافي: وداعاً للإسكندرية التي تفقدها، ترجمة (١٩٧٩)؛ يانيس ريتسوس: إيماءات، ترجمة (١٩٧٩)؛ لوركا: الأغاني وما بعدها، ترجمة (١٩٨١)؛ فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب، ترجمة (١٩٨١)؛ غونار أكليف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة، ترجمة (١٩٨١)؛ أونغاريتي: سماء صافية، ترجمة (١٩٨١)؛ هولان: قصائد، ترجمة (١٩٨١)؛ هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة، ترجمة (١٩٧٩)؛ نغوجي واثيونغو: تويجات الدم، ترجمة (١٩٨٢)؛ ديفيد معلوف: حياة متخيلة، ترجمة (١٩٩٨)؛ وولي سوينكا: المفسّرون، ترجمة (١٩٨٦).

والت ويتمان، أوراق العشب، ترجمة: سعدي يوسف
الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت، ٢٠١٠
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان
تلفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ٠١ (٠٠٩٦١)

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

مقدمة

[١]

تعرّض والت ويتمان (١٨١٩ ـ ١٨٩٢) إلى تشويهين كبيرين، ما يزالان ذوي تأثير ونفوذ.

كان التشويه الأول، يأخذ بأفكار ويتمان، مركّزًا عليها، منطلقًا منها، لمهاجمة الشاعر، دون تأكيد ظاهر على جماليات «أوراق العشب»، الأثر الشعري الوحيد لوالت ويتمان. يتبدّى التشويه المذكور في كتابات أميركية وأوروبية حاولت أن تضع الشاعر في منزلة النبي أو المتصوف، حينًا، وفي منزلة الشاذ، حينًا، مستفيدةً ـ على أي حال ـ من شواهد في شعره، ومشاهد من حياته.

أما التشويه الثاني، فكان يحاول الاهتمام بجماليات «أوراق العشب»، مستبعدًا أفكار ويتمان، ويتبدّى هذا واضحًا في نظرة ت س. اليوت إلى شعر ويتمان، فقد رأى من غير الخسارة أن نرى أفكار ويتمان تتساقط عن أشعاره. بينما رأى جيمس ميللر أن في أفكار ويتمان التي ضمتها قصائده، تأسيسًا لعلم النفس الفرويدي.. مثلاً.

لكن هذين التشويهين، لم يكونا سوى بعض مظاهر النفوذ الذي تمتع به

ويتمان في الشعر الأميركي والأوروبي. لقد «اعترف اليوت بصدد ويتمان (في مقدمة لكتاب ـ أزرا ياوند: قصائد مختارة ـ) بأنه كان عليه (أن يتغلب على كراهيته لشكل شعره، كراهيته لمضمونه، حتى يستطيع قراءته)، ولكن رغم نفورهما من ويتمان نفورًا واضحًا، فإن أحدًا من ياوند وإليوت لم يفلت افلاتًا تامًا من ظل «الأوراق» الظليل. وقد بدا أن ياوند يقر بهذا الإرث، حين كتب في قصيدة قصيرة لامعة: ـ إنني أعقد معك حلفًا يا والت ويتمان... فلقد كنت أنت الذي اقتحم الغابة الجديدة... فلدينا نحن الاثنين، جذر واحد، وعصارة واحدة ـ ولا أحد يقرأ بعمق ديوان «أوراق العشب»، يمكن أن يفوته الاحساس بالآثار التي نفذت من هذا الديوان إلى صفحات أغنيات ياوند، والرباعيات الأربع لاليوت»[1].

لقد تغنى فيدريكو غارسيا لوركا بلحية ويتمان «التي تملؤها الفراشات» هذه اللحية التي تعتبر بالنسبة للشعر الأميركي، مثيلًا لمعطف غوغول في القصة الروسية، وكان ديلان توماس يحتفظ في مكتبه البحري بصورتين معلقتين، أحداهما كبيرة لويتمان، وثانيتهما صغيرة لوليم بليك، كما يحيط الكتّاب الديمقراطيون ويتمان بعناية واضحة، سواء من ناحية أفكاره، أو من الناحية الاستيكية لشعره، ويطبع ديوانه وينشر، باستمرار، في البلاد الاشتراكية...

من أين تأتّى هذا التميز في النظر إلى ويتمان؟

وهل صحيح أن هذا المنشد الملتحي قد جاء بإنجاز شعري حقيقي مكرس للإنسان؟

وهل يتيح لنا ويتمان المواءمة بين أميركيته وكونيته؟

---

(١) جيمس ميللر: والت ويتمان.

عكف ويتمان، خلال أربعين عامًا من حياته، على عمل شعري واحد، يعدّه، وينقحه، وزيد عليه، هو «أوراق العشب»، ومع ان طبعة ديوانه الأولى ذات النسخ الثمانمائة كانت على حسابه، ولم تنل اهتمامًا يذكر، إلا من قبل امرسون، إلا أنها كانت ـ في الوقت نفسه ـ إيذانًا بمرحلة جديدة في الشعر الأميركي.

كان الشعر الأميركي ـ وبخاصة في بوسطن ونيو انجلند التي كانت تشكل مركزًا ثقافيًا مهمًا ـ مستنفدًا: كتب شعراؤه خير ما عندهم، تقليدًا لتنيسون، وأسلوبيةً جامدة، وخضوعًا للتأثير البيوريتاني. ولم تحدث الموجة الثورية الأوروبية في أربعينيات القرن التاسع عشر، ولا تحرير الرقيق، ولا الحرب الأهلية، سوى أصداء قليلة... نلمحها لدى امرسون ولونجفلو.

النجمة المتألقة في الشعر والقصة كانت ادغار آلان يو، (١٨٠٩ ـ ١٨٤٩)، لكن كان على الأوروبيين أن يكتشفوه قبل الأميركيين. وهكذا ترجم بودلير في ١٨٥٦ قصصه، بينما نشر مالارميه قصائده في بروكسل سنة ١٨٨٨.

كانت الرواية أكثر استجابة لضغوط المعركة ـ إذا استثنينا قصائد حربية محدودة الأهمية ـ.. وجاءت هارييت بيشر ستاو، وروايتها «كوخ العم توم» التي نشرت سنة ١٨٥٢.

لقد حاول هنري لو نجفلو، الشاعر الوقور، المغرم بالانضباط الشكلي، التعبير عن أميركا الأميركية، فاتخذ تعبيره في «أنشودة هياواثا» ـ ١٨٥٥ ـ طابع الاستطراف الفولكلوري للهنود الحمر والطيور والأساطير، إلا أن أميركا ـ وهي في ارهاصات الحرب الأهلية ـ كانت مؤهلة لأن يكون لها صوتها، المعبّر عن مرحلة شاقة وبهية من تاريخها: «تحرير الرقيق، وتوجيه ضربة حاسمة إلى

لاتيفونديا ملاكي الرقيق»[1] الذي تم في الحرب الأهلية ١٨٦١ ـ ١٨٦٥، والفترة الرئاسية لابرهام لنكولن، والتطلع الديمقراطي.

لكن الصوت الذي جاء به ويتمان في «أوراق العشب» كان مفاجئًا، وحشيًا، ذا نبر اعتبر سوقيًا، بحيث ألقى أحد الشعراء المعروفين آنذاك الديوان في النار، وحاول امرسون اقناع ويتمان بحذف قصائد الجنس، وفصله وزير الداخلية من وظيفته بدعوى الفحش، ومنعت بوسطن احدى طبعات «الأوراق» فيها.

[٣]

ما المفاجئ في «أوراق العشب»؟

في الواقع، ثمة أكثر من مفاجئ...

إن ويتمان، وهو المعروف بصحبة سائقي العربات والبحّارة والنجّارين والجنود، استطاع أن ينتقل بهم من دار العتمة إلى دائرة الضوء، مقدمًا وجوههم وكلماتهم وأعرافهم وآلامهم ومباهجهم.. وكان حريصًا في تقديمه هذا، على أن يمنحهم، جميعًا، بطاقة تعريفٍ واحدةً محترمة، لا نجد فيها غضاضة حين تجمع العاهر والقديس:

إلهي أنا... مَظهرًا ومَخبرًا

أجعل كل ما أمسّه مقدسًا

وكل ما يمسني مقدسًا.

هكذا نلتقي مع أناس ويتمان: القارئ، والغريب، والعاشقة، والتلميذ،

---

(١) ف. أ. لينين «حول الولايات المتحدة الأميركية»، ص١١٧ ـ موسكو١٩٦٧ ـ الطبعة الانجليزية.

والصياد، والجندي، والعبد الآبق، والرياضي، والعاهرة، وسائق العربة، والمزارع، وقاطع الأخشاب، والساحرة، هؤلاء الناس، ليسوا في قصائد «أوراق العشب» جزءًا من مشهد، أو طرفًا، إنّ لهم المشهد كله، يتحركون فيه طلقاء...

إن صيادي السمك في قصيدة «المشعل» يضيئون وحدهم القصيدة:

في ساحلي الشمالي الغربي

وفي موهن الليل

صيادون يراقبون...

وفي البحيرة المتسعة أمامهم

يطعن آخرون سمك السلمون

والزورق...

ينطلق عبر الماء الأسود

شيئًا معتم الظلال.

ومشعل يضطرم في القيدوم.

وفاءٌ ويتمان لأناسه، يبدأ من حرية الحركة، وينتهي بالتقاط الحوار، مع كل المسافة المتضمنة بين الابتداء، والانتهاء.

هذا الوفاء «التقنوي» للناس، الذي يبرز في التفصيل الفني، سوف يجد له تعبيرًا آخر، تعبيرًا متممًا، في الأفكار والآراء التي يقدمها الشاعر، والتي يعمم فيها نتائج ملحوظاته ومشاهداته، كما يجد التعبير في الموقف الذي يتخذه الشاعر داخل حركة القصيدة نفسها من مسألة معينة، محققًا انموذجًا جيدًا في بلورة المضمون الفني للأثر الشعري. في القسم العاشر من «أغنية نفسي»، يرسم الشاعر صورة عبد التجأ إليه، لكنه في البيتين الأخيرين يقول:

لقد أجلسته إلى جانبي على المائدة

وبندقيتي مسندة إلى الزاوية

هذا الموقف الصريح إزاء الرق، الذي وصل إلى حمل السلاح، هيأ له ويتمان السبيل الفني.

وقصيدته «إلى عاهرة عادية» انموذج آخر في بلورة المضمون الفني:

كوني هادئة، رابطة الجأش

- وتبسّطي معي.

فأنا والت ويتمان

حر، ومتشهٍّ، كالطبيعة

لن أهجرك حتى تهجرك الشمس

وكلماتي لن تأبى أن تجري وترسل حفيفها لك

حتى تأبى الأوراق أن ترسل حفيفها لك...

في هذه القصيدة، لا يبحث ويتمان عن نسخة جديدة من المسيح، بل إنه ليعلن شهوانيته، ورغبته في أن تتبسّط معه هذه المرأة... لقد ألحقها بالطبيعة، بأبناء الطبيعة: ويتمان والشمس والمياه والأوراق. ليس الغفران ما تطلبه المرأة.. في الواقع أنها لا تطلب شيئًا...

والشاعر قام بمهمة غاية في الدقة، حين صرف انتباهنا عن ارتجاعات المسألة، ووضعنا ببساطة، أمام حقيقة بسيطة ومذهلة في آن... هي أننا جميعًا أبناء الطبيعة.

[٤]

حاول نقاد بورجوازيون معينون (ج. و. ألن) مثلاً، دمغ ويتمان، واعتباره حالة «شاذة»، فحمّلوا شواهد متفرقة من شعره أكثر مما تحتمل، وفسروا علائق

شخصية محدودة تفسيرات غير محدودة. ومثلما فسر (ج. و. ألن) حديث ويتمان عن «الأوراق» الأولى، وسبب كتابتها، تفسيرًا فرويديًا، معتمدًا فقط في قول الشاعر «كتبتها تحت وطأة ضغط داخلي». ومعتبرًا هذا القول أساسًا في جعله اللاوعي مصدر شعر ويتمان ـ أقول... مثلما فعل ج. و. ألن ما فعل، حاول آخرون أن يجعلوا من تغني الشاعر بجمال الفتوة، أساسًا للحالة «الشاذة»، مغفلين عشرات ومئات الشواهد التي يتغنى فيها الشاعر بالمرأة والجنس (قصيدة ـ امرأة تنتظرني ـ مثلاً). إن هذا النموذج لما تعرّض له ويتمان من تشويه، يفترض فينا الوقوف موقف الحذر من آراء أخرى تدمغ الشاعر بالصوفية أو «الفلكية».

تستوقفنا قصيدة «مطوّفاً في الفكر» التي كتبها ويتمان بعد قراءة هيجل، وفيها نستطيع أن نتمتع بمدخل ما إلى منطلقات الشاعر الفلسفية، متناولين بعد القصيدة نماذج أخرى. إن القصيدة المذكورة، تحوي تفهمًا ما للديالكتيك الهيجلي، على قاعدة من اهتمامات ويتمان الأرضية.

وإذا أضفنا إلى هذه هتافه بحياة «العلم الوضعي» والتجربة الدقيقة في القسم الثالث والعشرين من «أغنية نفسي»، وتمجيده «الشعر المادي» في نص آخر، أمكننا أن نفهم هذا المقطع من القسم الخامس والأربعين في القصيدة المذكورة:

ليس هناك توقف، ولن يكون ثمة توقف

وحتى لو تحوّلنا هذه اللحظة: أنا وأنت

والعوالم

وكل ما فوق الأرضين وتحتها

إلى طوفان شاحب

فلن ينفع الأمر شيئًا

فلسوف نعود، مرة أخرى، كما كنا

ولسوف نتقدم...

أكثر...

فأكثر...

فأكثر...

كان والت ويتمان شاعرًا أرضيًا، بل لا تملك قصيدته أحيانًا غير أسماء الأماكن والمدن وظواهر الطبيعة. وحتى اهتمامه بالأجرام السماوية ليس غير تأكيد لقوانينه الأرضية:

إن ورقة العشب ليست أقل حركة من النجوم

هذا النزوع الأرضي لدى ويتمان، قد يستخدم الشعر بوقًا للمقوله:

إني أتقبل الواقع، ولا أجرؤ على مُساءلته

المادية أولاً...

والفكرة أخيرًا.

هكذا سنكون على بينة من نوعية الهيجلية التي أخذ بها ويتمان.

اللامرئي يثبته المرئي

حتى يصبح ذاك لا مرئيًا... ويحتاج بدوره إلى إثبات

بإظهار الحسن وعزله عن الرديء

يغيظ عصر عصرًا

[٥]

إن إلصاق التصوف بوالت ويتمان، يحمل مجانفة عامدة لكل التراث

الشعري والشخصي والسياسي للشاعر، ويمثل محاولة اقتلاع الشاعر من أرضه الحقيقية المليئة بالوجوه والأحجار والأشجار. ووضعه في هلامية لم يطقها في حياته، ولم يبررها نص مهم من نصوصه. لكننا لا نشعر بغرابة إزاء المحاولات الأخرى التي أشرنا إليها، فوالت ويتمان ما يزال خطرًا على الفكر الرجعي، شأنه حين أصدر الطبعة الأولى من «أوراق العشب» سنة ١٨٥٥.

[٦]

والت ويتمان أميركي كونيّ

وأميركية ويتمان، تتبدى في معظم قصائده، حتى قصائد الحب تحمل تحية خفية أو صريحة إلى الأرض والناس في هذه القارة. إن حدود أميركا تمتد عميقةً في القلب، كما تمتد بعيدة نحو ألاسكا وخليج المكسيك والشاطئين الغربي والشرقي. إنها تمتد في صورة الأم والطفل، وفي الرايات المزدحمة بالنجوم والأشرطة. ويندر أن تجد شاعرًا وطنيًا تغنى بالأماكن وأسمائها، وذكر من الأماكن وأسمائها، مثل والت ويتمان، في القسم الرابع عشر من «الرحيل من بومانوك» يذكر ثلاثين اسمًا من أسماء المدن والأماكن الأميركية، وفي مقطع من القسم الخامس عشر من «أغنية نفسي» يذكر اثنتين وسبعين مهنة، وفي مقطع من القسم الثالث والثلاثين في القصيدة نفسها يذكر أسماء سبعة عشر طيرًا وحيوانًا أميركيًا.

لكن أميركا ـ بالنسبة لويتمان ـ ليست فقط أرض الحدود والناس والطير والحيوان... إنها أيضًا الأرض التي ينبغي أن ترتفع فيها شارة الديمقراطية:

تعالوا...

سأجعل هذه القارة خالدة

سأخلق عليها أسمى جنس طلعت عليه شمس

سأخلق أرضين سماوية رائعة

بحب الرفاق

بحب الرفاق الدائم مدى الحياة

سأزرع الرفقة

كثيفة كالأشجار على أنهار أميركا،

وعلى ضفاف البحيرات الكبرى

وعلى امتداد السهوب

سأبني مدنًا متعانقة بالأذرع

بحب الرفاق

بحب الرفاق الرجولي.

لك مني هذا، أيتها الديمقراطية

من أجلك، يا امرأتي

لك.

لك أغني هذه الأغاني.

أميركية ويتمان التي توحّد القارة العظيمة في أغنية صميمة متسامية... هذه الأميركية الويتمانية هي من الأصالة والنقاء بحيث تتفتح كزهرة واسعة.. على القارات كلها. والعوالم كلها، وأبناء القارات والعوالم. حقيقة أن ويتمان كثيرًا ما يبدي نقدًا لأوروبا القديمة:

أيتها الحكومات القديمة

يا مكوِّني اللغات على الضفاف الأخرى

أيتها الأمم التي كانت منيعة.

مفاخرًا في الوقت نفسه، بأميركا:

هنا حيث يهبط الرجال والنساء

هنا حيث وارثو العالم ووارثاته.

إلا أن نقده لأوروبا، وفخره بأميركا، ينطلقان من اعتقاده أن العالم الجديد يمثل الشعلة التي جاءت بعد طول انتظار لتبدد الظلام السائد:

هنا حيث لهب المادة

هنا الروح الترجمان المجاهرة

الناهضة أبدًا

منتهى المرئيات المرضية

إنها تأتي بعد طول انتظار

أجل إنها تأتي الآن عشيقتي الروح.

وحين يصف والت ويتمان نفسه بأنه مواطن العالم، وابن مانهاتن، في آن، فإن مواطنته العالمية ليست هوىً عابرًا أو هوائيًا. إن عروقه لمشدودة إلى التاريخ البشري وصيحات المعذبين على امتداد هذا التاريخ:

عبري أصوات خرساء مديدة عديدة

أصوات أجيال متشابكة، من سجناء وأرّقاء

أصوات المرضى واليائسين واللصوص والأقزام

أصوات عصور التهيؤ

والخيوط التي تصل النجوم بالأرحام والذكورة.

هكذا يطلق ويتمان صيحته وخطاه «واحدًا من أمة بين أمم عديدة صغراها كبراها». ومما يستلفت الانتباه في ويتمان وهو ينوّع على عالميته، أنه يقرن هذه العالمية بانتمائه إلى بسطاء الناس، وأخيارهم، المزارع والميكانيكي والفنان والبحار والسجين والعشيق...

ويظل ويتمان أمينًا إلى نظرته العالمية، حتى في أشد اللحظات حراجة. في القسم الخامس والثلاثين من «أغنية نفسي» يقدم ويتمان صورة معركة بحرية جرت إبان حرب الاستقلال الأميركية بين سفن انجليزية وأميركية. وفيها يصف العدو بأنه «لم يكن هينًا، كان انجليزيًا شجاعًا، لا أشد منه ولا أوثق، ولم يكن ـ ولن يكون ـ أشد منه وأوثق».

هكذا لم يتخل ويتمان عن نظرته العالمية، حتى وهو يتناول صورة من حرب الاستقلال تقدم معركةً بحرية مريرة.

إن العالمية لدى ويتمان هي ذات مضمون إنساني متقدم.

[٧]

الجوهر الديمقراطي لشعر ويتمان، هو أكثر من التغني بالديمقراطية.

إنه كامن وظاهر في تناوله الإنسان والأحداث والأشياء: الموقف من الرّق ـ الموقف من الحرب الأهلية ـ الموقف من علاقة الإنسان بالإنسان ـ الموقف من المؤسسة.

في عدد من القصائد، يتناول ويتمان مسألة الرّق، عبر ما يعانيه العبد الآبق، المتلجئ، والمطارد، وهو في هذه المسألة يظل أمينًا لتطلعه إلى عالم ليس فيه أسياد وعبيد:

ها هي ذي المائدة، مهيأة للجميع

ها هو ذا اللحم للجوع الطبيعي

المائدة للأشرار، كما هي للأخيار

إني أدعوهم جميعًا

لن أترك مهملًا أو مبعدًا

فلقد دعوت المرأة، وصائد الاسفنج، واللص

والعبد الغليظة شفتاه

والمصاب بالمرض الجنسي

لن يكون هنا فرق بينهم وبين الآخرين

تحتل قصائد الحرب الأهلية حيزًا كبيرًا في «أوراق العشب». القصائد تتناول المعارك، وحشرجات الجرحى، المجازر البشرية... لكنها تطفح بآمال كبيرة، وتشوّفٍ إلى عالم جميل متحفّز سوف يحلّ بعد انتهاء الحرب:

سياسة جديدة

آداب جديدة

مخترعات وفنون جديدة

كلها يعلنها صوتي

لن أنام بعد...

فتعاظمي، وارتفعي أيتها المحيطات التي كانت هادئة فيّ!

كم أنت عصية على السير

تتحركين

وتهيئين عصفًا وثبجًا لم يكن مثلهما يومًا.

حقيقةً أن الحرب الأهلية، كانت محدودة النتائج بإلغاء الرق وتوجيه ضربة حاسمة إلى لاتيفونديا مالكي الرقيق.. لكنها وضعت أميركا الولايات، في بداية تطور ضخم، لم يكن والت ويتمان مهيأ لاستشراف المشكلات الكبرى التي سيطرحها هذا التطور. من هنا كان تحفظ لوناتشارسكي حين سمى ديمقراطية ويتمان «ديمقراطية صغار المنتجين».

[٨]

يرى ويتمان أن علاقة الإنسان بالإنسان ينبغي أن تعتمد في الأساس على إزالة الحواجز التي تقف بين إنسان وآخر:

أيها الغريب

حين تمرّ بي، وتريد أن تحدثني

لم لا تحدثني؟

ولم لا أحدثك؟

لكن هذه الحواجز، ليست من داخل الإنسان، إنها حواجز النظم: الفلسفات القديمة والكنائس، وبعيدًا عنها، بعيدًا عن سقراط ويسوع، يرى ويتمان:

حب الإنسان لرفيقه

وما يصل الصديق بالصديق

والزوج بالزوجة

والطفل بالوالدين

والمدينة بالمدينة

والبلاد بالبلاد.

والناس الأكثر تقبلاً لإزالة الحواجز مما بينهم. في رأي ويتمان، هم الناس البسطاء، الذين سيرثون الأرض وما عليها:

انظر إلى الميكانيكيين منهمكين بأدواتهم على المصاطب

انظر من بينهم إلى القضاة والفلاسفة والرؤساء

وهم يبرزون بملابس العمل

هؤلاء الناس، طيبون، كالأرض والنجوم والتوابع، و:

كلهم عادل، وخالد، وبعيد الغور، مثلي

(انهم لا يعرفون كم هم خالدون، لكني أعرف)

والنموذج الأكثر تقدمًا، بين الناس الذين يحبهم ويتمان، هم الذين يرفضون التملك، ويتطلعون إلى حياة جديدة، إلى الحرية، والخلاص، هؤلاء الأقربون هم الذين:

يدقّون صنج الثورة النحاسي

ويقفون مع المشردين

ومع أولئك الذين يكيدون ويتآمرون

لقد تحرر هؤلاء الأقربون من الحاجز الأعظم الذي يفصل الإنسان عن الإنسان، تحرروا من «التملك»، فامتلكوا سبيل تغيير العالم: الثورة.

[٩]

يقترب رأي ويتمان في المؤسسة الاجتماعية من آراء الطوباويين، وبخاصة آراء مواطنه هنري ثورو (١٨١٧ ـ ١٨٦٢) التي بسطها في كتابه «والدن ـ وحي الغابة» المنشور في بوسطن عام ١٨٥٤.

كان هنري ثورو يحيل قوانين الكون إلى التجربة الشخصية. ويعامل تلك القوانين على ضوء التجربة المذكورة. وقد دفعه ضيقه بالمؤسسة الاجتماعية إلى العيش مع الحيوان والطير في غابات والدن. مستأنسًا الأوابد. متآلفًا مع الطير والسمك.. وكان يرى في العودة إلى بساطة الطبيعة حلاً للإشكالات المجتمعية والشخصية.

إن العلاقة الفكرية والشخصية الحميمة بين ثورو وامرسون لها دلالتها في الاهتمام الذي أولاه امرسون لـ«أوراق العشب» في طبعتها الأولى.

بين قصائد «الأوراق» واحدة تحمل عنوان «سمعت بأن تهمة وجهت ضدي»، تشرح إلى حد معين موقف ويتمان من المؤسسة:

سمعت بأن تهمتي هي أني أريد أن أدمّر المؤسسات

لكني، حقًا، لست مع المؤسسات. ولا ضدّها

(ما الذي يجمعني بها. أو بتدميرها؟)

أريد فقط أن أبني في مانهاتن

وفي كل مدينة من الولايات

في داخل البلاد. وعلى شاطئ البحر

في الحقول والغابات

وفي كل سفينة، صغيرة، أو كبيرة، تلامس الماء ـ

أريد فقط أن أبني

دون أجهزة وقوانين ونقاش

مؤسسة حب الرفاق العزيز.

هكذا، ينوّع ويتمان، في قصائد أخرى، تنويعات جميلة، على هذه المسألة، كان يحلم بمجتمع رجال ونساء أكفاء، كاملين، يتمتعون بالمساواة

في التعامل والعمل، ويعتمدون في تسيير شؤونهم. على الحب الرفاقي، على الرفقة، التي تشكل هاجسًا دائمًا لدى شاعر «الأوراق».

لكن ويتمان يختلف عن ثورو، في أنه لا يضع الغابة ومخاليقها مثالاً وأنموذجًا، وإنما يريد أن يبني مدينته الفاضلة، مع الشعب الطيب، في كل مكان من أرض أميركا ومائها.

[١٠]

يتسم شعر ويتمان، بأنه شعر حر «مرسل»، وبأن الأبيات طويلة، بل طويلة جدًا[1].. وبأن الأبيات كثيرًا ما تتصل ببعضها في تدوير محدود. لكن هذا الشعر المرسل، ليس بدون ضوابط، فهو يلجأ إلى التجنيس والمطابقة، وهو يلجأ إلى تعامل صوتي يمنح القصيدة المرسلة قدرًا من الموسيقى حين تستدعي الحاجة وتلحّ.

في المقطع الثاني من قصيد «أغنية البلطة العريضة» يكرر الشاعر عبارة Welcome are lands of عشر مرات بالنص نفسه تقريبًا، كما يميل إلى تقفية معينة.

وفي أواخر القسم الرابع عشر من قصيدة «ذكريات الرئيس لنكولن»، يرقّ الشعر المرسل، ويسيل، حتى ليغدو أغنية حقيقية.

ان التدفق هو السمة الرئيسة لقصائد ويتمان، الطويلة بخاصة، حيث القسم الواحد مقاطع، وحيث الأقسام قد تبلغ الخمسين عدًا.. لكن علينا، من أجل أن نتمثل الجهد الفني للشاعر، أن نتتبع المقاطع، مقطعًا اثر مقطع، لنضع أيدينا ـ بوضوح ـ على تفصيلات سوف نفتقدها لو شغلنا بالغابة عن الأشجار.

---

(١) لم أراعِ في النص العربي الامتداد الأصلي للأبيات، وإنما عمدت إلى تقطيع معين.

ولغة ويتمان، غنية، متنوعة، فيها التعبير الدارج، والمفردات الايطالية والفرنسية، ومفردات الهنود الحمر.. وفيها كذلك السمو الانجيلي للمفردة، والمصطلح الفلسفي والعلمي، والمئات من أسماء الطير والحيوان والأنهار والجبال وظواهر الطبيعة.. إنها من السعة والشمول، بحيث يمكن أن نقول عنها إنها لغة متميزة بعدم التميز.. لغة الحياة ذاتها... الحياة الضّاجة المزدحمة الواسعة...

قصائد ويتمان القصيرة نماذج جيدة لتوظيف المشهد والملاحظة شعريًا...

قصيدته «مرة مررت بمدينة مزدحمة» مثلًا تكتفي بالاستعادة العميقة، المستندة إلى وقائع وملحوظات صغيرة، لتقدم لنا صورة إنسانية وذاتية في آن... صورة أمينة مرهفة. ويضيّق ويتمان «هذا الذي يطلق صيحته البربرية على سقوف العالم» بمساحة القصيدة الصغيرة ومسافتها، أحيانًا، فيحوّل هذه القصيدة إلى صيحة، كما فعل في قصائد أمثال «إلى الولايات» و«إليك أيتها الديمقراطية».. يظل التدفق، إذاً، السمة الرئيسة لقصائد والت ويتمان.

[١١]

ما أهمية والت ويتمان للقارئ العربي، والشعر العربي؟

في رأيي أن تقديم ويتمان إلى قارئنا وشعرنا، في هذه المرحلة بالذات له أهمية كبرى...

فهو ـ أولاً ـ نسمة شعرية صحية، بين الكثير الكثير مما يترجم من شعر إلى لغتنا.

وهو ـ ثانيًا ـ شاعر أمة في دور نهوض، مما يقدم لشعرنا ـ المتطلع إلى أن يكون المعبّر عن نهوضنا ـ أنموذجًا عاليًا.

وهو ـ ثالثًا ـ شاعر ثورة شعرية امتدت إلى أوروبا، وآتت أكلها، فقصيدة النثر ما كان لها أن تشق سبيلها الأوربي لولا إسهامة ويتمان الكبرى.

وهو ـ رابعًا ـ شاعر المحسوس والواقع المعيش والمفردة السائرة، وما أحوجنا، وأحوج شعرنا، إلى المحسوس والمعيش والمفردة السائرة...

آمل أن يكون جهدي المتواضع في تقديم «المختارات» وفاءً للرجل، وأمانةً لنصّه، ونافذةً ليست ضيقة نطل منها على «أوراق»...

وسوف يكون فرحي عظيمًا، لو وطّنت نفسي ـ أو وطّن غيري نفسه ـ يومًا، على تقديم «الأوراق» كاملة.

سعدي يوسف

لا تغلقي أبوابك

لا تغلقي أبوابك عني

أيتها المكتبات المتكبّرة

فلقد أتيت بما خلت منه رفوفك المليئة كلها

ومسّت إليه حاجة رفوفك المليئة كلها.

من الحرب جئت بكتابي

كلمات كتابي: لا شيء.

اندفاعه: كل شيء.

إنه كتاب متوحّد

ليس كالكتب الأخرى

ولا الذهن يستشعره

لكنك. أنت أيتها الكوامن غير المعلنة

سوف تأخذك الهزّة لكل صفحة منه.

أيها القارىء

أيها القارئ

إنك لتنبض بالحياة

والكِبَر، والحب

مثلي أنا،

فإليك... الأغاني الآتية.

إلى غريب

أيها الغريب العابر

أنت لا تدري كم انتظرتك طويلاً

أنت من كنت أبحث عنه

أو من أبحث عنها

(ها هو ذا الحلم يأتيني)

أكيدًا، عشت معك، يومًا ما، حياة فرح.

كل شيء أتذكر، ونحن نمر ببعضنا

طربين، حنونين، طاهرين، ناضجين.

لقد ترعرعت معي

كنت فتىً، أو فتاةً، معي

طعمت معك

ورقدت معك

وجسدك لم يعد لك وحدك

ولا جسدي عاد لي وحدي

لقد منحتني، وأنت تم،ر

بهجة عينيك

ووجهك

وبشرتك،

وأخذتَ لحيتي وصدري ويدي، بدلا.

لا أتحدث إليك

لكني أفكر بك

حين أجلس وحيدًا

أو أستيقظ في الليل وحيدًا

علي أن أنتظر

فإني لملاقيك، ثانيةً:

أنا لا أريد أن أفقدك.

إلى الولايات

إلى الولايات

أو إلى أي واحدة منهن

أو أي مدينة بالولايات:

قاومي كثيرًا

وأطيعي قليلاً.

فلو أطعت مرةً طاعة عمياء

لاستُعبدتِ استعبادًا كاملاً.

ولو استُعبدتْ مرةً

أمةٌ، أو ولايةٌ، أو مدينةٌ، في هذه الأرض

استعبادًا كاملاً،

فلن تستعيد حريتها أبدًا.

مرة مررت بمدينة مزدحمة

مرةً، مررتُ بمدينة مزدحمة

غارزًا في ذهني، من أجل المستقبل،

معارضها، وبناياتها، وعاداتها.

لكني الآن

لا أتذكر من تلك المدينة

إلا امرأة التقيتُها مصادفة

واستبقتني لأنها أحبّتني.

كنّا معًا

ليلة بعد ليلة

ونهارًا تلو نهار.

لقد نسيت طويلاً، كل ما سواها

أقول: إنني لا أتذكر سوى تلك المرأة

التي تعلقتْ بي عاشقةً.

مرةً أخرى

نطوّفُ

ونحب

ونفترق مرة أخرى.

ومرة أخرى، تتشبث بيدي، لا تمضِ!

أراها لصيقة بي،

شفتاها صامتتان

حزينتان

مرتجفتان.

إليك أيتها الديمقراطية

تعالوا

سأجعل هذه القارة خالدة،

سأخلق عليها اسمى جنس طلعت عليه شمس

سأخلق أرضَين سماوية رائعة

بحب الرفاق

بحب الرفاق الدائم معنى الحياة.

سأزرع الرفقةَ

كثيفةً كالأشجار على أنهار أميركا

وعلى ضفاف البحريات العظمى.

وعلى امتداد السهوب

سأبني مدنًا متعانقةً بالأذرع

بحب الرفاق

بحب الرفاق الرجولي.

لكِ مني هذا، أيتها الديمقراطية

من أجلكِ يا امرأتي...

لكِ

لكِ أغني هذه الأغاني.

إلى فتى غربي

أشياء كثيرة علمتُكَها

لتكون تلميذي.

لكن...

إن لم يجرِ دم مثل دمي، في عروقك،

إن لم يخترك العشاق

صامتين

أو لم تختر العشاق

صامتًا،

فأي شيء ترجو...

من كونك تلميذي؟.

يا من آتيك غالبًا... في الصمت

أنتِ

يا من آتيكِ غالبًا، في الصمت

لأكون معك...

حين أسير إلى جانبك

أو أجلس لصقك

أو أبقى في الحجرة نفسها، معك،

إنك تعرفين قليلاً

عن النار الهادئة

التي تتلاعب فيّ، من أجلك.

مثل آدم في الصباح الباكر

مثل آدم في الصباح الباكر
خرجت من الجوسق
منتعشًا بالرقاد.
انظرْ إليّ، وأنا أمرُّ
اسمعْ صوتي
وتعال إليّ
ألمسني...
إمسح براحة يدك جسدي، وأنا أمرّ،
لا تخف من جسدي.

المشعل

في ساحلي الشماليّ الغربي

وفي موهن الليل

صيادون يراقبون...

وفي البحيرة المتّسعة أمامهم

يطعن آخرون أسماك السلمون.

والزورق

ينطلق عبر الماء الأسود،

شيئٌ معتّم في الظلال...

ومشعل يضطرم في القيدوم.

منتصف ليل صاف

إنها ساعتك أيتها الروح
ساعة طيرانك الطليق في ما ليست له كلمات
بعيدًا عن الكتب
بعيدًا عن الفن.

لقد امّحى النهار
وتمّ الدرس.

ها أنت تنهضين
صامتةً
محدّقةً
متأملةً في ما تحبين:
الليل
والرقاد
والموت
والنجوم.

الأم والطفل

أرى الطفل النائم

مستكنًا في صدر أمه . . .

الأم نائمة

والطفل نائم...

كنت أدرسهما صامتًا

أدرسهما طويلاً

طويلاً.

ساعة واحدة للجنون والفرح

ساعة واحدة للجنون والفرح

آهٍ للعصف...

ويكَ، أطلقْني!

(ما معنى صرخاتي وسط البروق والرياح الصاخبة؟)

آهٍ لو أشرب الهذيان الصوفي

أعمق من أي إنسان،

آهٍ للتوق الوحشي الحنون

(انني أهبكم أياه يا أطفالي).

(انني أبلغكم به، لأسباب أيها العريس وأيتها العروس).

آهٍ لو استسلمتُ اليك

كائنًا من تكون،

ولو استسلمت أنتَ إليَّ

متحدِّيين العالم!

آهٍ للعودة إلى الفردوس

أيتها الخجلى

أيتها المتدفقة بالأنوثة،

آهٍ لو جذبتك إليّ

لأغرس فيك للمرة الأولى

شفتي رجل مقدام.

آهٍ للحيرة!

للعقدة الثلاثية

للعقدة التي عقدت ثلاثًا

للبحيرة العميقة المعتّمة

وقد حُلّت الأولى وأضيئت الثانية، كلها!

آهٍ للسرعة

حيثما كان فضاء يكفينا أخيرًا!

آهٍ للانطلاق من الروابط والعادات السالفة

أن أنطلقَ أنا من روابطي وعاداتي السالفة

وأن نجد لا مبالاةً جديدة مع خير ما في الطبيعة

أن يُرفع عن كل فم ما يكمّه

وأن أشعر اليوم، وكل يوم، أنني مكتفٍ بنفسي

يا شيئًا لم يُبرهَنْ!

يا شيئًا كله نشوة!

أن أنجو، طليقًا، من مراسي الآخرين وأغلالهم!

أن أنطلق حرًا!

أن أحب حرًّا!

أن أندفع جسورًا خطرًا!

أن أغازل الدمار بالسخرية، بالإغراء!

أن أرتفع

أن أثب إلى سماوات الحب التي تنتظر!

أن أسمو هناك ثمل الروح!

أن أضيع إن كان لا بد من الضياع!

أن أطعم بقيا الحياة ساعة امتلاءٍ وحرية!

ساعةً قصيرةً من الجنون والفرح.

مطوفًا في الفكر

«بعد قراءة لهيجل»

مطوفًا

أفكر في الكون،

رأيت القليل الذي هو خير

يتقدم بخطى ثابتة

نحو الخلود.

ورأيت الكثير الذي هو شرّ

يمضي سريعًا:

ينحلّ

ويتبدّد

ويموت.

إلى الشيخوخة

أراكِ الرافد الذي يتّسع

وينتشر

جليلاً

وهو يصبّ في البحر العظيم.

إلى عاهرة عادية

كوني هادئةً

رابطة الجأش

ـ وتبسّمي معي ـ

فأنا والت ويتمان

حرّ، ومُتَشَهٍّ، كالطبيعة.

لن أهجرك

حتى تهجرك الشمس.

وكلماتي لن تأبى أن تجري وترسل حفيفها لكِ

حتى تأبى المياه أن تجري، لكِ.

وحتى تأبى الأوراق أن ترسل حفيفَها، لكِ.

أيها الشعراء الآتون

أيها الشعراء الآتون

أيها الخطباء والمغنّون الآتون

ليس هذا هو اليوم الذي يبررني

أو الذي يجيب عما أريد.

ولكنكم، أنتم

النوع الجديد، الوطني، الرياضي، القارّي

الأعظم مما عُرف قبلاً

انهضوا.

فعليكم أنتم أن تبرروني

إنني لم أكتب سوى كلمة مختارة

أو كلمتين مختارتين

من أجل المستقبل.

انني لم أتقدّم لحظةً، إلا لأعودَ مسرعًا إلى العتمة.

إنني الرجل الذي يُلقي

ـ مندفعًا إلى الأمام دون توقف ـ
نظرةً عجلى عليكم
ثم يشيح بوجهه
تاركًا لكم أن تَجلوه وتحدّدوه
متوقّعًا الأشياء كلها منكم.

أي الأماكن محاصر

أي الأماكن محاصَر...

ولا يستطيع أن يفكَ عنه الحصار؟

انظر!

إنني أبعث إلى ذاك المكان

بقائدٍ

طائرٍ إليه

شجاعٍ ممتنع عن الموت.

ومعه:

الفرسان والمشاة، وسفن المدفعية

ومدفعيون لم يطلق أحد يومًا ما

مثلهم، مدفعًا.

السفينة تقلع

انظر!

ها هو ذا البحر الذي لا يعرف حدودًا

على متنه تقلع سفينة

ناشرة كل أشرعتها،

حاملة حتى أشرعتها القمرية

والراية تخفق عاليةً.

وعندما تسرع، تسرع وقورًا

تندفع تحت الأمواج المتسابقة،

إنها تطوّق السفينة

بالإندفاعات المشرقة المتقوّسة،

والزّبد.

مبتدئًا دراستي

مبتدئًا دراستي

رأيت خطوتي الأولى هي خطوتي الفضلى،

إدراك الحقائق المجرّدة

وهذه الأشكال

وقوة الحركة،

وأضآل شجرة أو حيوان

والأحاسيس، والبصر، والحب،

لقد راعتني الخطوة الأولى

ولشدّ ما سرّتني

حتى لم أكد أغادرها، ولم أشأ أن أغادرها،

أردت أن أنهض

وأطوف، وقتي كله.

أغنّيها أغنية الوجد.

إلى مغنية ما

تقبّلي، الآن، هذه الهدية

كنتُ محتفظًا بها لبطل، أو خطيب، أو قائد،

لمن يخدم القضية الطيبة الأولى

الفكرة العظيمة

تقدم البشرية وحريتها.

كنت محتفظًا بها

لشجاع يواجه الطغاة،

لمتمرد باسل

ولكني أرى أن ما كنت أحتفظ به

يعود إليك

كما يعود لأيٍّ منهم.

أنا الرابط الجأش

أنا الرابط الجأش

أقف حرًّا، في الطبيعة

سيد الجميع، وخادم الجميع

منتصبًا وسط الأشياء غير المعقولة

متشرّبًا مثلها

سلبيًا مثلها

متقبّلاً، وصامتًا، مثلها

رائيًا عملي، بؤسي، ورداءتي، ومواطن ضعفي، وجرائمي

أقل أهمية مما ظننت.

إنني، في بحر المكسيك، أو مانهاتن، أو تنيسي

أو بعيدًا في الشمال

أو في وسط البلاد

رجلٌ نهريٌّ، أو ساكن غابة

أو في زراعة هذه الولايات

أو على الساحل

أو على بحريات كندا،

سأكون ـ حيثما عشت حياتي ـ

متوازن الذات أمام الطارئات

لأواجه الليل والعواصف

والجوع والسخف

والحوادث والاخفاقات،

كما تفعل الأشجار والحيوانات.

إليك

أيها الغريب

حين تمرّ بي، وتريد أن تحدثني

لمَ لا تحدّثني؟

ولمَ لا أحدّثك؟

سمعت بأنَّ تهمة وُجهِّت ضدّي

سمعت بأن تهمتي

هي أني أريد أن أدمّر المؤسسات

لكني، حقًا، لست مع المؤسسات، ولا ضدها

(ما الذي يجمعني بها، أو بتدميرها؟)

أريد فقط أن أبني في مانهاتن

وفي كل ولاية من الولايات

في داخل البلاد، وعلى شاطئ البحر

في الحقول والغابات

وفي كل سفينة، صغيرة، أو كبيرة، تلامس الماء ـ

أريد فقط، أن أبني

دون أجهزة وقوانين ولجان ونقاش،

مؤسسة حب الرفاق العزيز.

قاعدة كل الميتافيزيقا

والآن، أيها السادة

أقول لكم كلمة تبقى في ذكرياتكم وعقولكم

قاعدةً، ونهاية أيضًا، لكل الميتافيزيقا،

(هكذا يقول الاستاذ العجوز للطلبة في آخر درسه المزدحم)

لقد درستم الجديد والقديم

النظم الإغريقية والجرمانية

درستم:

كانتْ، وفخته، وشللينغ، وهيجل

وأفلاطون

وأرسطو الأعظم من أفلاطون

وأعظم من سقراط، درستم يسوع طويلاً.

الآن...

أرى تلك النظم الاغريقية والرومانية

محضَ ذكرى،

والفلسفات كلها

والكنائس كلها،

لكني أرى، تحت سقراط ويسوع

أرى جليًا

حبَّ الانسان لرفيقه وما يصل الصديق بالصديق

والزوج بالزوجة

والطفل بالوالدين

والمدينة بالمدينة

والبلاد بالبلاد.

من أكون أخيرًا

من أكون أنا؟

غير طفل مسرور بصوت اسمي؟

أعيده

وأعيده

وأقف جانبًا لأسمعه...

إنه لا يتعبني أبدًا.

وأنت أيضًا...

اسمك

أتظن أن ليس ثمة سوى نطقين أو ثلاثة

في صوت اسمك؟

معجزات

لِمَ هذه الضجة عن معجزة؟

أمّا أنا فلا أعرف سوى المعجزات

سواء أكنت ماشيًا في شوارع مانهاتن

أو مصعّدًا بصري عبر سقوف المنازل، صوب السماء

أو متسكّعًا، حافيًا على الشاطئ، عند حافة الماء

أو مستظلاً تحت شجرة الغابات

أو متحدثًا في النهار مع من أحبّ

أو مضجعًا في الليل مع من أحب

أو جالسًا على مائدة الطعام مع الآخرين

أو ناظرًا إلى الغرباء، قبالتي، وهم يركبون العربة

أو مراقبًا نحل العسل دوارًا حول القفير في ضحى صيفي

أو السائمة التي ترعى

أو الطيور

أو غرابة الحشرات في الهواء

أو روعة الغروب

أو النجوم وهي تشع هادئةً متألقةً

أو الانحناءة المرهفة لهلال الربيع

هذه، مع سواها

الواحد، والكل، أراها معجزات

أرى كل ساعة من النور والظلمة، معجزةً

كل بوصة مربّعةً من الفضاء. معجزةً

وكل ياردة مربّعة من سطح الأرض، مليئةً بالمعجزات

وكل قدم من باطن الأرض، مليئًا بالمعجزات

أرى البحر معجزة مستمرة:

الأسماك ـ الصخور ـ حركة الأمواج

والسفن ذات الرجال.

ترى، كم من المعجزات هناك!

أجلس وأحدقُ

أجلس وأحدق في آلام العالم كلها

في كل اضطهادٍ وعار.

أسمع النشيج السّري

من شباب يتألمون مع أنفسهم

نادمين على ما فعلوا.

أرى الأم التي أساء أبناؤها معاملتها

تموت في شظف العيش

منسيةً

يائسةً

واهنةً.

أرى الزوجة التي أساء زوجها معاملتها.

أرى ذلك الغدار الذي يغوي الفتيات.

وألمح نار الغيرة والحبِ القاسي، التي لا تخفى.

أرى هذه المشاهد على الأرض

أرى ما فعلته المعارك والأوبئة، والطغيان

أرى الشهداء والسجناء

أرى المجاعة في البحر

وأرى البحارة يقترعون على من سيقتلون

حتى يظل أحياءً، الباقون.

أرى الاهانات والشتائم التي يكيلها المتغطرسون

للعمال

والفقراء

والزنوج

وأمثالهم...

كل هذا...

كل هذا اللؤم، والعذاب، اللذين لا ينتهيان

أجلس وأحدق فيهما.

أرى

وأسمع

صامتًا.

الرحيل من يومانوك

[١]

بادئًا الرحيل من پومانوك التي تشبه سمكة

پومانوك التي فيها وُلدت

من أب ميسور

وربّتني فيها أمّ كاملة الشمائل.

طوفت أراض كثيرة

أنا، عاشق الأرصفة المزدحمة

الساكن في مانهاتن، مدينتي

أو في بلاد السڤانا الجنوبية

أو الجندي المخيِّم، أو حامل كيس تجهيزاتي وبندقيتي

أو عامل المخيَّم في كاليفورنيا

أو المخشوشن في بيتي بغابات داكوتا

طعامي اللحم، وشرابي النبع

أو اللائذ بملاذ ناءٍ، مفكّرًا، متأمّلاً

بعيدًا عن ضجة الحشود التي تمر جذلى سعيدة

واعيًا الميسوري، الواهب، الجاري

واعيًا نياغارا الجبارة

واعيًا قطعان الجاموس الوحشي وهي ترعى في السهول

والثور المنتصب الشعر، المكين الصدر

والأرض والصخر

وزهور الشهر الخامس

والنجوم والمطر والثلج.

لقد درست نغمات الطير المحاكي

وطيران الصقر الجبلي

وسمعت في الفجر

الرفيف السرّي المتفرد لأوزّات المستنقعات

إنني أغني، في الغرب، وحيدًا

مستهلاً أغنيةً من أجل عالم جديد.

[٢]

النصر، الاتحاد، الايمان، الذات، الزمن

العقد المستعصية، الثروات، الأسرار

التقدم الأبدي، الأكوان، وأبناء الحاضر ـ

ها هي ذي الحياة إذاً.

هذا ما ظهر منها

بعد آلام المخاض والبرء كله

كم هو غريب!

كم هو حقيقي!

الأرض الالهية تحت أقدامنا

والشمس فوق رؤوسنا.

أَنظر إلى الكرة الأرضية وهي تدور

إلى القارات القديمة ملتمّة جمعًا

إلى قارات الحاضر والمستقبل، شمالاً وجنوبًا، والبرزخ بينهما

أَنظر إلى المساحات الواسعة التي لم تشقّها المسالك

إنها ـ كما في الحلم ـ تتغيّر وتمتلئ سراعًا

إن جماهير لا تُعدُّ، تندفع عليها

إنها مغطاة الآن بأفضل الناس والفنون.

أَنظر إلى ما يتراءى لي عبر الزمن

صفوفًا لا متناهية

تتقدم بخطى ثابتة موزونة

أفواجًا من الأميركيين،

جيل يؤدي مهمته، ويمضي

وجيل آخر يؤدي مهمته، ويمضي

متلفّتًا،

إلى الوراء، أو إلى الجانب

ليصغي إلي
بعيون والهةٍ، مثبَّتة علي.

[٣]

أيها الأميركيون الظافرون
لتعْلُ المارشات الانسانية
لتتقدم مارشات القرن
أيها الأحرار
أيتها الجماهير
من أجلكم برنامج أغانٍ،
أغاني البرابرة
أغاني المسسبي الذي يجري طويلاً حتى بحر المكسيك
أغاني أوهايو
أغاني انديانا
أغاني ألينوي
أغاني أيوا
أغاني وسكونسن
أغاني منيسوتا
أغانٍ مندفعةً من الوسط، من كنسَاس
ومن مسافات مماثلة،

أغان مندفعة

في نبضات نارية دائمة.

لتحيي الجميع.

[٤]

خذي أوراقي يا أميركا

خذيها جنوبًا

خذيها شمالاً

رحّبي بها حيث حلّت، فهي طوالعك

طوّقيها شرقًا وغربًا، فإنها ستطوّقك

وأنتم أيها السابقون

أحبوها فهي تحبكم

إنني أتوجه إلى الأزمان السالفة

إنني أجلس عند أقدام المعلمين العظام متعلّمًا.

والآن...

آهٍ لو كنت مؤهَّلاً لأن يلتفت إليّ المعلمون العظام

فيدرسوني هم قليلاً.

هل أستطيع باسم هذه الولايات

أن أحتقر القديم؟

لماذا؟

إن أبناء القديم هؤلاء، يبررون ذلك.

[٥]

أيها الشعراء الموتى

أيها الفلاسفة والقساوسة

أيها الشهداء والفنانون

أيتها الحكومات القديمة

يا مكوّني اللغات على الضفاف الأخرى

أيتها الأمم التي كانت منيعة

وهي الآن، واهنة، متراجعة، معزولة،

إنني لا أستطيع أن أتقدّم

حتى أتبيّن شاراتكم التي خلّفتموها هنا

لقد اتّبعتها زمنًا

معتقدًا أن لا شيء أعظم منها

ولا شيء يستأهل أكثر مما تستأهل

لقد تفحّصتها طويلاً

ثم أقصيتها جانبًا.

إنني أقف في مكاني، ويومي معي، هنا

هنا حيث يهبط النساء والرجال

هنا حيث وارثو العالم ووارثاته

هنا حيث لهب المادة

هنا الروح لترجمان، المجاهرة

الناهضة أبدًا، منتهى المرئيات
المرَضية...
إنها تأتي بعد طول انتظار
أجل، إنها تأتي الآن، عشيقتي الروح

[٦]

الروح
أبدًا، أبدًا، أكثر سمرةً وصلادةً من التراب
أكثر تدفقًا وجريانًا من الماء.
إنني سأصنع قصائد المادة
لأنني أعتقد أنها ستكون أكثر القصائد روحيةً.
وسأصنع قصائد جسدي
وقصائد الغناء
لأنني أعتقد أنني سأهبُ نفسي آنذاك
قصائد روحي
وقصائد البقاء.
سأغني لهذه الولايات أغنية تقول:
ليسدِ الصفاء ليل نهار بين الولايات كلها
وبين أي اثنين منها.
وسأغني أغنية لمسامع الرئيس

مليئة بأسلحة ذات نهاية مهدّدة

ووراء الأسلحة، وجوه غاضبة، ليس لها عدّ

وسأغني أغنية عن الواحد المتشكّل من الجميع

الواحد المتألق ذي المخالب

الواحد الذي رأسه فوق الجميع

الواحد المحارب الحازم

الذي يضم الجميع، وهو فوق الجميع

(ومهما كان عاليًا، رأس أي كان، فإن ذلك الرأس أعلى)

سأعترف بالبلدان المعاصرة

سأطوف جغرافية الكرة الأرضية كلها

ويا أيتها الأعمال!

سأقول في قصائدي إن البطولة فيك

سأتحدث عن كل بطولة، من وجهة نظر أميركية

سأُغنّي أغنية الرفقة

سأُري ما يضم أخيرًا، هذه جميعًا

أو من أن هذه سوف تجد مثالها عن الحب الانساني

متجسدًا فيّ،

لذا سوف أطلق نيراني الحارقة

التي كانت تهددني،

سأزيح الغطاء الذي حجب طويلاً

هذه النيران الحارقة،

سأهبها الانطلاقة الكاملة

سأكتب القصيدة البشرى

عن الرفاق

وعن الحب

فمن سواي يفهم الحب بكل أساه وبهجته؟

ومن سواي شاعر الرفاق؟

[٧]

أنا المصدّق بالشمائل والعصور والأجناس

أبدأ من الشعب بروحه ذاتها

وهذا ما يغني الايمان اللامتناهي

دع الآخرين يجهلون ما شاؤوا

إنني أصنع قصيدة الشر أيضًا، وأذكر هذا أيضًا

وأنا نفسي، شرّير بقدر ما أنا حسن

وكذلك أمتي

(وأقول الحق، ليس ثمة من شر

(وإذا كان هناك، فهو مهم لكم

وللبلاد، ولي، كالأشياء الكثيرة الأخرى)

أنا أيضًا

متّبع العديد

ومتبُوعٌ بالعديد
أعلن دينًا، وأنزل إلى الساحة
(وقد أكون من قُدّرَ له أن يطلق أعلى الصيحات هناك)
(وأن يهدر بهتافات النصر المدوية)
(ومن يدري؟ فقد تنطلق مني بعدُ، محلقةً فوق كل شيء)
أي شيءٍ، ليس لذاته
أقول: إن الأرض كلها، ونجوم السماء جميعًا، هي للدين
أقول: لم يستطع بعدُ أي إنسان أن يكون نصف مؤمن
ولم يُحبَّب أحد، ولم يُعبد، بنصف ما ينبغي له
ولم يبدأ أحد يفكر، كم هو إلهي، وكم أكيد هو المستقبل
أقول أمجّد هذه الولايات الحق... يبج أن يكون دينها
وإلا فليس هناك من مجد آخر، حقيقي، ودائم
(لا خلق ولا حياة تستحق اسمها، بلا دين)
(ولا بلاد، لا رجل، لا امرأة، بلا دين).

[٨]

ما الذي تفعله أيها الشاب؟
أأنت مخلص هكذا، للأدب والعلم والفن والحب؟
لهذه الحقائق الظاهرية؟
للسياسة؟

للغايات؟

لطموحك، وشغلك، مهما كانا؟

حسنًا...

لن أقول كلمة ضد هذه

فأنا شاعرها أيضًا.

ولكن، انظر!

هذه العوارض السريعة، أُحرقت في سبيل الدين

وليس كل شيء وقودًا للشعلة الدائمة، الحياة الأساسية للأرض

وأكثر من هذه، هو الدين.

[٩]

ما الذي تبحث عنه، متأملًا صامتًا؟

ما الذي تريده، أيها الرفيق؟

يا بني العزيز، أتظنه حبًا؟

أنصت يا بني العزيز

أنصتي يا أميركا، بنتًا وابنًا

إنه لمؤلم أن تحب رجلًا أو امرأةً حبًا مسرفًا

لكنه أمر رضيّ، عظيم

إلا أن ثمة شيئًا آخر أعظم، يجعل الكل يتوحد

وإنه لرائع،

وراء الماديّ.

يوزع هباته على الجميع بيدين كريمتين.

[١٠]

تعلمون أنكم حين تبذرون في الأرض

بذور ديانة أعظم

فإني سأغني الأغاني الآتية...

يا رفيقي

لك أن تشاركني عَظَمتي

وثالثةً أبهى

عظَمة الحب والديمقراطية

وعظَمة الدين.

إني أمزج اللامرئي والمرئي:

المحيط الغامض حيث تصب الجداول

الروح النبوية للمادة تضطرب وتأتلق حولي

الأحياء، والنفوس القريبة منّا، دون ريب، في الهواء الذي نجهله،

إنه تَواصل أيام وساعات لا يمنحني فكاكًا

بعضه يختار مني

وبعضه يشير إلي إشارات خفية.

ليس ذاك الذي يشدني إليه

بقبلته اليومية التي ظلّت تدور حولي منذ الطفولة
بأكثر مما أنا مشدود إلى السماوات وعالم الروح
وبعدما قدّموا لي ما قدّموا...
ها هم يقترحون المواضيع
يا لتلك المواضيع! ـ المساواة! يا للسمو الإلهي!
يا تلاحين تحت الشمس، منطلقة كما هي الآن
أو في الظهيرة، أو الغروب
يا موسيقى متوترةً تبلغني عبر العصور
إنني أتناول أوتارك المشدودة المندفعة، وأضيف إليها
وأسلّمها ـ مبتهجًا ـ إلى الآتي.

[١١]

عندما كنت أتجول في آلاباما جولتي اليومية
رأيت أنثى الطائر المحاكي
في عشها بين الورد البري
تحضن صغارها.
ورأيت الطائر الذكر أيضًا
وتوقفت، قريبًا، لأسمعه
وهو يزهو بعنقه مغرِدًا
وآن كنت متوقفًا، تراءى لي أن ما غنّاه

لم يكن هناك، حسب

وليس لأنثاه

أو لنفسه، حسب،

وليس كل ما غناه كان رجع صدى

لكنه صوت أبيض

سريّ

خفيّ

ورسالةٌ تُنقَلُ

وعطاء إلى المعبودين.

[١٢]

أيتها الديمقراطية

لصقُّكِ حنجرة تمتلئ، وهي تغني مبتهجة

يا امرأتي

من أجل أبناءٍ أمامنا، ومنا

لأولئك الذين هنا، والذين سيأتون

إنني ليغمرني فرح الاستعداد لهم...

ولسوف تتعالى ترانيمي

أقوى وأسمى من كل الترانيم التي سمعتها الأرض

سأصنع أغاني العاطفة لأوطئ لهم السبيل

وأغانيكِ ستطرد المنتهكين...

إنني أحدّق فيك بعينين طفلتين

وأحملك معي، كما أحمل الكثير

سأكتب أغنية الثراء الحقيقية

لآتي إلى الجسد والروح بكل ظافر سائر قُدمًا

لا بما اخترمه الموت

سأهرق الأنانية، وأظهرها أقل شأنًا من الجميع

وسأكون شاعر الشخصية

سأُري الرجل والمرأة أنهما ندّان

والأعضاء والأفعال الجنسية؟

أتريدون مني المزيد؟

إنني قرّرت أخباركِ بصوت واضح شجاع

لأحتفل بك متألقة

ولأُظهر أنْ لا شائبة في الحاضر

ولن تكون هناك في الآتي

وسأُظهر أن ما يحدث لأي إنسان

قد يتحوّل نتائج جميلةً

سأقول في قصائدي إن الزمن والأحداث متضامّة.

وأن كل ما في الكون معجزات كاملة

الواحدة عميقة كالأخرى

لم أكتب قصائد إلى الأجزاء

لكني سأكتب قصائد وأغانيَ وأفكارًا، للكل
لن أغني ليوم واحدٍ
بل، للأيام جميعها
ولن أكتب قصيدة، ولا طرفًا من قصيدة
إلا عائدًا إلى الروح
فلقد نظرت إلى أشياء الكون
فرأيت أنْ لا واحد منها
ولا جزء منها
إلا وهو عائد إلى الروح.

[١٣]

أيريد أحد أن يرى الروح؟
لينظر إلى هيأته وسيماه، هو نفسه
لينظر إلى الأشخاص
إلى الجوهر
إلى الحيوان والشجر
إلى الأنهار الجارية
إلى الصخر والرمل
فهي كلها تحتفظ بأفراح الروح، ثم تفقدها
كيف يمكن للجسد الحقيقي، أن يموت ويدفن؟
جسدك الحقيقي أنت

والجسد الحقيقي لأي رجل أو امرأة
يستسلم شيئًا فشيئًا إلى أيدي الغاسلين
ويرحل إلى الأجواء الخانقة
حاملًا معه كل ما نماه
من لحظة الميلاد حتى لحظة الموت.
ليست الحروف التي ينضّدها الطبّاع
بأقل استعادة لأثرها ومعناها وهمها الأول
مما يستعيده الجسد والروح من جوهر الرجل وحياته
وجوهر المرأة وحياتها
قبل الموت، أو بعد الموت.
أنظر...
إن الجسد ضيق، وهو المعنى والهم الأول
إنه ضيق، وهو الروح.
أيْ، كائنةً من كنتِ:
يالسمو جسدك وأُلوهيّته
ويالسمو أي عضو من جسدك وألوهيّته!

[١٤]

أيْ، كائنةً من كنت
اليكِ نداءات غير منتهية..

يا ابنة الأرضَين، أتنتظرين شاعرك؟

أتنتظرين الشاعر ذا الفم المفوّه، واليد المتمرّسة؟

وإلى رجال الولايات ونساء الولايات

كلماتٍ متهللةً

كلماتٍ إلى أرض الديمقراطية

الأرضين المتضافرة، واهبةِ الغلال

أرض الفحم والحديد

أرض الذهب

أرض القطن والسكر والرز

أرض القمح واللحم

أرض الصوف والقنّب

أرض التفاح والعنب

أرض المراعي، مَعَاشب العالم!

أرض تلك الهضاب اللامتناهية التي يَعذُبُ فيها الهواء

أرض القطيع والبستان وبيت اللُّبن

الأراضي التي تهبّ عليها رياح شمال غربي كولومبيا

ورياح جنوبي غربي كولورادو

أرض جيسابيك الشرقية

أرض ديلاوير

ارض أونتاريو، واري، وهورون، ومشيغن

أرض الثلاثة عشر القديمة

أرض ماساشوستش، أرض فيرمونت، وكوتكتيكوت

أرض سواحل المحيط

أرض السلاسل والقمم

أرض المراكبيين والبحّارة

أرض صيادي الأسماك

الأراضي المتضامّة، الملتصقة، الصبور

الأراضي السائرة معًا، الأشقاء الكبار والصغار، والهزالى

أراضي النساء العظيمات

الشقيقات المحنّكات، والشقيقات السواذج

الأراضي العريضة العريضة

التي يعانقها القطب

ويهب عليها نسيم المكسيك

الأراضي الشاسعة الملتزّة

الأراضي البنسلفانية، والفرجينية، والكارولاينية المَثنى

آهٍ لها، التي أحبها كلًّا، وواحدة واحدة.

يا أممي الباسلة!

أنت يا من أضمَك جميعًا بحبي الشامل!

لا أستطيع التخلي عنك، ولا عن أي واحدةٍ منك!

آهٍ أيها الموت! آهٍ لكل ذاك

إنني أطوّف فيك، هذه الساعة! من الحب الذي لا يُكتم

أجوب نيو انجلند، صديقًا، ومسافرًا

وقدمامي العاريتان تثيران الرشاش في حافة مويجات الصيف

على رمال بومانوك

عابرًا البراري

مقيمًا ثانيةً في شيكاغو

مقيمًا في كل مدينة

مشاهدًا الاستعراضات والولادات والتحسنات

والأبنية والفنون،

منصتًا إلى الخطباء والخطيبات في القاعات العامة.

ومن الولايات، وعبرها كما في الحياة ـ

أرى كل رجل وامرأة جيرانًا لي

واللويزاني والجورجية قريبين مني، كما أنا قريب منهما

والأركنساسي والمسبّبة، أنا باق معهما، كما هما باقيان معي.

وسواء كنت في السهول غرب النهر الفقريّ

أو في بيتي اللّبن

سواء عدت غربًا، أو في ولاية ساحل البحر. أو ماريلاند

سواء كنت كنديًا أقهر الشتاء شجاعًا

والثلج والجليد يهللان لي،

سواء كنت ابنًا بارًا لـ«مين» أو الولاية الغرانيتية

أو ولاية خليج ناراگانسيت

أو الأمپاير ستيت

أو كنت مبحرًا نحو ضفاف أخرى

لأضم لي الشقيق الجديد المرحّب نفسه

هناك حيث أضيف هذه الأوراق الجديدة

من ساعة اتحادها بالأوراق القديمة

وحين أكون بين الجدد، رفيقًا لهم وندًا ـ

سآتي اليكم الآن

منضمًّا اليكم في الأعمال والأشخاص والمَشاهد.

[١٥]

تعالوا إليّ

تعالوا سراعًا، وتشبثوا بي

فحياتكم ملتحمةٌ بي

(ربما طلبت أن تقنعوني مرارًا قبل أن أرضى بأن أهبكم نفسي صدقًا)

(وهل في ذلك من ضير؟)

(ألا ينبغي أن تقنع الطبيعة مرارًا؟)

لست من تجرح خديه خطرات النسيم

فلقد أتيت ملتحيًا

محترق الوجه بالشمس

مسودّ الرقبة، بغيضًا

أتيتُ لأصارعَ، وأنا أقدّم جوائز الكون

إنني أقدمها لكل من يستطيع الفوز بها.

[١٦]

دقيقةً توقفتُ، وأنا سائر

هذا لك

وهذا لأميركا!

إنني أرفع الحاضر عاليًا

وأبشّر بمستقبل للولايات، بهيج، متسامٍ

أما القديم فإنني أنطلق بما تحمله الريح من الهنود الحمر.

الهنود الحمر

الذين خلّفوا أنفاس الطبيعة

وأصوات المطر والريح

وصيحات كنداء طيور الغابات وحيوانها: أسماءَ لنا ـ

أو كوني ـ كووسا ـ أوتاوا ـ مونوغاهيلا ـ سوك

ناتشيز ـ چاتاهوچي ـ كوكويتا ـ اورونوكو

واباش ـ ميامي ـ ساغيناو ـ چيپيوا ـ أو شكوش ـ والاوالا . .

لقد خلفوا هذه الأسماء للولايات

وهم يختفون ويرحلون

مطلقين الأسماء، على الماء واليابسة.

[١٧]

العناصر والأنواع والقواعد، تفور وتتعاظم

عالم بدائي، مرة أخرى

مسالك للمجد متفرغة وغير منقطعة

رسّ جديد أعظم مجدًا، وأجدُّ فتحًا، يسيطر على من سبقه

سياسة جديدة

آداب جديدة،

مخترعات وفنون جديدة

كلها يعلنها صوتي.

لن أنام بعدُ...

فَتَعاظَمي وارتفعي أيتها المحيطات التي كانت هادئةً فيَّ

كم أنت عصية على السبرِ!

تتحرّكين

وتهيئين عصفًا وثبجًا لم يكن مثلهما يومًا.

[١٨]

انظرْ إلى البواخر تمخر خلل قصائدي

انظرْ في قصائدي إلى المهاجرين، الآتين والنازلين، أبدًا

انظرْ إلى الخلف

لترى الكوخ الهندي الدائر، والقافلة

وكوخ الصيّاد، والفلك، وورقة الذرة

وأرض التنقيب، والسياج الخشن

والقرية البعيدة في الغابات

انظرْ إلى البحر الغربي، وإلى البحر الشرقي

كيف يندفعان ويرتدّان على قصائدي

انظر إلى الحيوان الوحشي والأليف

انظرْ عبر «الكاو» إلى قطعان لا تحصى من الجاموس البري

وهي تقتات العشب القصير الجعد

انظرْ في قصائدي إلى المدنِ الراسخة الواسعة داخل البلاد

بطرقها المبلّطة

ومنشآتها من الحديد والصخر

وعرباتها غير المنقطع سيلها

وتجارتها.

انظر إلى المطابع البخارية ذات السلندرات العديدة

انظر إلى البرق الكهربائي يمتد عبر القارة

انظر ـ عبر أعماق أطلانطيكا ـ إلى النبضات الأميركية

وهي تبلغ أوروبا...

وإلى نبضات أوروبا، عائدةً

انظر إلى القاطرات القوية السريعة وهي تنطلق

لاهثةً، مطلقةً صفّارتها البخارية

انظر إلى الحارثين يحرثون المناجم

انظر إلى المصانع التي لا تحصى

انظر إلى الميكانيكيين منهمكين بأدواتهم على المصاطب

انظر من بينهم إلى القضاة والفلاسفة والرؤساء

وهم يبرزون بملابس العمل

انظر الي أنا...

أتمشى، متكاسلاً، بين الحوانيت والمزراع...

أسمعُ الأصداء العالية لأغانيّ الآن.

وأقرأُ إشاراتها أخيرًا.

[١٩]

آهٍ للرفيق القريب!

ها نحن معًا أخيرًا، نحن وحدنا.

آهٍ لشيء منتش بسيط

آهٍ للموسيقى الوحشية

انني الآن أنتصر، وأنت أيضًا ستنتصر.

آهٍ ليدين متضامّتين

أو لمحبٍ آخر، وعاشق آخر

آهٍ لو أسرعتم إلي، وتشبثتم بي!

أغنية نفسي

[١]

إني أحتفي بنفسي، وأغني نفسي

وما سآخذ به ستأخذون به

وكل ذرة فيّ، هي ذرة فيكم

إني أطوف، وأدعو نفسي

إني اتكئ وأطوف، مطمئنًا

أرقب ورقة جديدة للعشب الصيفي

لساني، وكل ذرة في دمي، هي من هذا التراب، وهذا الهواء.

لقد وُلدت من أبوين ولد أبواهما هنا، ووِلِدَ أبوا هذين هنا أيضًا.

إني الآن في السابعة والثلاثين. موفور العافية

أبدأُ، آملاً ألا أتوقف حتى الممات.

العقائد والمدارس معطّلة إلى حين

متراجعة

مكتفى بما هي عليه

لكنها غير منسية أبدًا
إني ألجأ إلى الحسن والسيّئ
وأتحدث أمام كل خطر
وأتآلف دون حساب والطاقة الأصيلة.

[٢]

المنازل والحجرات متضوّعة بالعطور
والرفوف مليئة بالعطور
وأنا أتنشق العَرْف، أعرفه وأحبه
يسكرني التقطير، لكن لن أسمح،
الفضاء ليس عِطرًا
ليس له طعم التقطير، فهو عديم الرائحة
إنه أبداً لفمي
إنني أهواه.
سوف أذهب إلى ضفة النهر
جنب الغابة
وأخلع قناعي وردائي
إنني متلهف إلى أن أتّصل بي.
أنفاسي،
أصداء ومويجات، وهمسات أزّارَة

وحبٌّ جوهرٌ، وخيطٌ حريرٌ

وجذع وكرمة.

وشهيقي وزفيري، وخفق قلبي

ودورة الدم والهواء في رئتي

ورائحة الأوراق الخضر، والأوراق اليبيسة

والشاطئ، وصخور البحر السود

والتين في الهُرْي.

ضجةُ كلمات صوتي المندفعة في دوامات الريح

قليل من القبلات الخفيفة

قليل من العناقات، والتفاف ذراعين

لعبة الضوء والظل على الأشجار

حيث الأفنان الرخصة تتمايل.

فَرح أن تكون وحيدًا، أو في مزدحم شارع

أو في الحقول، وسفوح التلال

الاحساس بالعافية، وارتعاشة أصوات الهاجرة

أغنيتي تصَّاعَدُ من الفراش لتلقى الشمس.

هل عددتَ ألف «أكر»(*) كثيرًا؟

هل بقيتَ تتعلم القراءة طويلاً؟

هل أحسست بالزهو لإدراكك معنى القصائد؟

(*) الأكر: مقياس للمساحة يساوي ٤ آلاف متر مربع.

توقفْ هذا النهار

وهذه الليلة، معي

تملكْ جوهر كل القصائد.

ولتملكنّ خير الأرض والشمس

(ما تزال هناك ملايين الشموس)

لن تتناول الأشياء التي تداولتها الأيدي

ولن تنظر عبر عيون الموتى

ولن تغْتذي أشباح الكتب

لن تنظر حتى عبر عينيّ

ولن تأخذ الأشياء مني

سوف تنصبّ إلى الجهات كلها، وتصفيها خلل نفسك.

[٣]

لقد سمعت قالة القائلين

قالة المبدأ والمنتهى

لكني لن أقول عن المبدأ والمنتهى

ليس من مستهَل أفضل من مستهل اليوم

ولا من شباب، أو عصر

ولن يأتي كمال كالذي هو الآن

ولا من جنة أو نار.

الاندفاع، الاندفاع، الاندفاع

للعالم، أبدًا هو الاندفاع الولود

وخارج العتمة، يتقدم الأكفاء الأضداد

أبدًا، هو النبع والفيض

أبدًا، هو الجنس

أبدًا، هو رباط الهوية

أبدًا، هو السمو ونتيج الحياة

الايضاح ليس بالممكن

هكذا يشعر العارفون وغير العارفين.

وأنا أقف إلا مع هذا السر

واثقًا

شديد الأسر

قويًا مثل جواد

حنونًا، متساميًا، مكهربًا.

عذبة وصافية هي روحي

وعذب وصاف كل ما هو ليس روحي.

الحاجة إلى الواحد، حاجة إلى الاثنين معًا،

اللامرئي يثبته المرئي

حتى يصبح ذاك لا مرئيًا، ويحتاج بدوره إلى إثبات

بإظهار الحسن وعزله عن الرديء، يغيظ عصر عصرًا.

عندما يتناقشون أصمت.

أنا العارف منزلةَ الأشياء وتوازنَها

وأمضي، أغتسل، فخورًا بنفسي

الرحبُ والسعة في كل عضو وصفةٍ مني

ومن كل امرئ نظيف واسع الفؤاد

ليس من بوصة أو بعض بوصة. ذات رداءة

ولن تكون أي واحدة أقل ألفةً من البقية.

إنني لراض:

أنظر، وأرقص، وأضحك، وأغني

ما دام ضجيعي المعانق والمحب... إلى جانبي طوال الليل

ويغادرني في طرّة الفجر، متلصصَ الخطى

تاركًا لي سلالاً تغطيها مناشف بيض تملأُ المنزل.

هل أغضّ النظر عن تقبّلي وإدراكي

وأصرخ بعينيّ:

كُفًّا عن التطلع إلى الطريق

ولا تعتبراني أكثر من سنتٍ واحد

تمامًا. مثل قيمة واحدة، أو اثنين، وما إلى هذين؟

[٤]

الجوّابون والسائلون الذين يحيطون بي

والناس الذين ألقى

وميسم حياتي الأول

والحي، والمدينة، اللذان أعيش فيهما

أو الأمة،

والمواعيد الأخيرة، والمكتشفات والمخترعات والمجتمعات

والمؤلفون، الجدد والقدامى،

وطعامي وملابسي ومعارفي ونظراتي وتحياتي وفعالي،

التجاهل الحقيقي أو المزيف لرجل ما أو امرأة أحبها

مرضُ قريبٍ لي، أو مرضي أنا

أو العمل الرديء

أو خسارة المال، والحاجة إليه

أو الخذلان أو الازدهاء

المعارك، وفظائع حرب الأشقاء

وحمى الأنباء الغامضة، والأحداث القاسية ـ

هذه كلها، تأتيني أيامًا وليالي، وتغادرني،

لكنها ليست أنا نفسي.

بعيدًا عن الشد والجذب يقف ما هو أنا

يقف، دَهَشًا، رضيًا، متدفقًا، عاطلاً، متوحدًا
مطأطئًا، منتصبًا، أو مستندًا إلى الذراع في استراحة ما،
ناظرًا برأس مائل يتطلع إلى الآتي
داخل اللعبة، وخارجها معًا،
أرقبها وأدهش لها
وأعود إلى الماضي، فأرى حياتي
أيام كنت أغرقُ في الضباب
مع اللغويين والمتجادلين.
لست ذا حيل وحجج...
إنني أشهد وأنتظر.

[٥]

أؤمن بكِ يا نفسي
لكن عليّ ألاّ أجعل الآخر أقلّ منكِ شأنًا
وعليكِ أنت ألاّ تكوني أقلَّ من الآخر شأنًا،
تسكّعي معي على العشب
أطلقي العقدة من حنجرتك
لا أريد الكلمات، والموسيقى، ولا الإيقاع
لا العادة ولا الثقافة
حتى ولا الأفضل من هذه كلها،

أريد الهدهدة حسب،
خفوتَ صوتك المصرّع.

أتذكر مرةً
كيف تمدّدنا في صباح صيفيّ شفيف
كيف أرحتِ رأسكِ على عجيزتي
واستدرت إلي لطيفةً
وكنتِ علي
كيف فتحت قميصي من عظم الصدر
وبلغتِ بلسانك قلبي العاري الكثيف
واستمررتِ حتى شعرتِ بلحيتي
واستمررتِ حتى أمسكتِ بقدمي.

فجأةً أشرقتْ حولي وانتشرتْ
الطمأنينة والمعرفة اللتان تفوقان كل جدال الأرض.
أنا أعلم أن يد الله هي وعد يديّ
وأعلم أن روح الله شقيقة روحي
وأن الرجال هم أشقائي
أن كل النساء شقيقاتي وعشيقاتي
أن أصل الخليقة الحب
وأنها لا تحصى ولا تعدُّ:

الأوراق اليبيسة، أو المُسَاقطة في الحقول

والنمل البني في الآبار الصغيرة أسفلها

وطحالب السياج المهترئ

وأكوام الحجر

ونبات أذن الدب، وعنب الذئب.

[٦]

قال طفل، وهو يقدم لي العشب بكلتا يديه:

ما العشب؟

أنى لي أن أجيب الطفل؟

إنني لا أعرف أكثر مما يعرف

ربما كان العشب راية نزعتي

منسوجةً من مادة خضراء متفائلة

أو قد يكون منديل الله

حاملاً اسم صاحبه، بصورة ما، في الزوايا

فلربما رأيناه، ولحظناه، وسألنا: اسم من؟

ولربما كان العشب بنفسه طفلاً، وليد النبات

وربما كان كتابةً هيروغليفية

معناها «التبرعم»

في المساحة الضيقة، والمسافة الواسعة

ناميًا بين السود، نماءه بين البيض
إنني أهبُ كانوك ـ توكاهو ـ كاف ـ الشيءَ نفسه
وأتقبلهم التقبلَ نفسه.
الآن يتراءى لي العشب شعرًا للقبور جميلاً مرسلا.

رقيقًا سأتناولك أيها العشب الجعد
فربما كنت نجمتَ من صدور شبان أحبهم لو رأيتهم
ربما كنت نجمت من جديدي الولادة
المنتزعين من أحضان أمهاتهم.
إن هذا العشب
هو أكثر سوادًا من أن يكون قد نَجَمَ
من الرؤوس البيض للأمهات العجائز.
إنه أكثر سوادًا من أن ينجم
من لحى الشيوخ التي لا لون لها.
العشب أسود، لأنه نَجَمَ من اللهوات الحمر
إنني أحس الآن بألسنة عديدة تتمتم
وأحس أنها لم تنطلق من لهوات الأفواه عبثًا.

كم أحب أن أترجم ما يقوله الشبان والشابات الموتى
وما يقوله الشيوخ والأمهات
والوليد المنتزع من أحضانهن سريعًا!

ماذا ترى حلّ بالشبان والشِيَب؟
ماذا ترى حلّ بالنسوة والأطفال؟
إنهم أحياء معافون في مكان ما
فأدق برعم يقول: لا وجود للموت حقًا
ولو حدث أن كان موت
فسيقود إلى الحياة قُدمًا
ولن ينتظر في النهاية أن يحكم قبضته عليها.
إنه يتوقف لحظةَ تتبدى الحياة.
كل شيء يسير قُدُمًا، وعاليًا، ولا شيء يسقط.
أن يموت المرء...
أمر مختلف عمّا يُظَنُّ:
أمر أسعد حظًا.

[٧]

هل ظنَّ امرؤ
أنه سعيد الحظ بأنْ وُلد؟
أسارعُ، فأقول له، أو، لها
إنه لسعيد الحظ كذلك، بأن يموت
وأنا العارف السبب
إنني أدع الموت للموتى

والولادةَ، للطفل المغسول جيدًا
فأنا لست مقتسَماً بين قبّعتي وجزمتي.
إنني أسعى من أجل غايات عديدة
لا تُماثل واحدتُها الأخرى...
وكلها طيبة
الأرض طيبة، والنجوم طيبة، وتوابعها طيبة كلها
وأنا لست أرضًا، أو تابع أرض
أنا عشير الناس ورفيقهم
وكلهم عادل، وخالد، وبعيد الغور، مثلي
(إنهم لا يعرفون كم هم خالدون، لكنني أعرف)

كل نوع، على نوع يقع
أما أنا، فلي الذكر والأنثى
لي أولئك الذين كانوا أولادًا، وأولئك الذين يحبون النساء
لي الرجل ذو الكبرياء، الذي يحس بوخزة الاهانة
لي الحبيبة والعانس
لي الأمهات، وأمهات الأمهات
لي الشفاه التي ابتسمت، والعيون التي دمعت
لي الأطفال، ومنجبو الأطفال.
اهتكوا الأستار! انكم لم تذنبوا بحقي، لست أكرهكم، ولا أرفضكم
إنني أبصر من رواء الأستار...

متتبهًا، مستفسرًا
قويًا، لا يهزني شيء.

[٨]

الطفل ينام في مهده
وأنا أرفع الغلالة، وأنظر إليه طويلاً
وأُبعد عنه الذباب بيدي، صامتًا
الفتى والفتاة يحيدان
صاعدَينِ التلَّ الأشجر
وأنا أنظر اليهما من علُ.

المنتحر يتمدد على الأرضية الدامية لغرفة النوم
وأنا أنظر موضع سقوط المسدس.

ثرثرة معبّد الطريق/ عجلات المركبات/ صوت كعوب الأحذية
حديث المتنزهين/ الحافلة الثقيلة/ السائق ذو الابهام المستفسرة
وقع الخيول المنعّلة على الأض الغرانيت
الزحافات الثلجية.. ترنُّ... ترنُّ...
وهي تطلق الضحكات، وكرات الثلج
الهتافات للأبطال الشعبيين، وعنف الجماهير الغاضبة،

خفْق المحفّة ذات الستائر، ورجل داخلها محمول إلى المستشفى.
لقاء الأعداء، والشتيمة المفاجئة، والضربات، والسقطة
والحشد المتحفز،
والشرطي ذو النجمة يشق طريقًا مسرعًا إلى وسط الحشد
والصخور الصمّ التي تتلقى الأصداء، وتعيدها مراتٍ ومرات.

أي أنين للمتخمين
وأنصافِ الجائعين الذين يسقطون بضربة الشمس
أو بالنوبات.

أي صرخات للنسوة اللواتي يحسسن بالمخاض
فيسرعن إلى البيت ليضعن المواليد
أي نداء حي دفين ينبض الآن دائمًا!
أي عواء تلجمه اللياقة!
إلقاء القبض على المجرمين، والوضعاء، عروض الخيانة الزوجية
والتقبل أو الرفض بشفاه مزمومة ـ
انني أهتم بهذه كلها
أو بمرآها
أو بأصدائها...
أجيء، وأمضي.

[٩]

الأبواب الكبيرة للهرْيِ القروي
مفتوحة مستعدة.
والقشّ اليابس لموسم الحصاد
يملأ العربة البطيئة.
والضوء الباهر
يلعب على اللون البني الغامق واللون الأخضر المتداخلين.
والحُزْمُ تحملها الأذرع إلى المخزن المائد.

إني هناك، أساعدهم
جئت متمددًا في أعلى الحِمْل
شاعرًا بهزاته الناعمة
والساق ملتفة بالساق
متدحرجًا
متقلبًا
وشَعري مليء بأضغاث القش.

[١٠]

أمضي إلى القنص وحيدًا
بعيدًا

في البراري والجبال

دهِشًا لخفتي ومرحي.

وفي أوائل المساء، أبحث عن مأمنٍ ليليّ

مشعلاً نارًا، مشتويًا ما قنصت

ثم نائمًا على الأوراق الملمومة

مع كلبي

وبندقيتي من يدي بمكان.

السفينة اليانكي منفوخة الأشرعة

تقطع البرق، وما تسفوه الريح،

عيناي تعيّنان الأرض، إني أميل إليها

أصيح مبتهجًا من سطح السفينة.

البحارة، وصائدو السمك القشري ينهضون مبكرين

وينتظرونني

وأنا أدخل نهايتَي سروالي في جزمتي

وأمضي معهم...

وأقضي وقتًا جميلاً.

آهٍ لو كنت معنا، ذلك اليوم

حول البرّاد الذي يغلي.

شهدت زواج البهلوان في الهواء الطلق

في الغرب البعيد

كانت العروس فتاة حمراء الشعر...

وكان أبوها وأصدقاؤه يجلسون

واضعين ساقًا على ساق

مدخّنين بصمت.

كانوا يحتذون أخفافًا

ومن أكتافهم تتدلى بطانيات عريضة ثقيلة

وعلى ضفة نهر تمدد البهلوان:

كان أكثر ملابسه جلدًا

وكانت لحيته الفخمة وجدائله تقي عنقه

كان يمسك عروسه بيده.

كانت طويلة الأهداب، عارية الرأس

وكان شعرها البسيط ينحدر على أطرافها

حتى يبلغ قدميها.

جاء العبد الآبق إلى منزلي، وتوقف خارجه

وسمعت حركاته تُطقطق الأغصان في كومة الحطب

وخلل باب المطبخ الموارب، رأيته نحيفًا ضعيفًا

ذهبت إلى حيث كان يجلس على خشبة

وأدخلته المنزل

وطمأنته . .

وجئت بماء، وملأت الحوض لجسده العرقان

وقدميه المسلوختين
وأعطيته حجرةً متصلة بحجرتي
وثيابًا خشنة نظيفة.
إنني أتذكر جيدًا عينيه الدوارتين وارتباكه
وأتذكر أنني وضعت ضمادات على رقبته وركبته.
بقي معي أسبوعًا، قبل أن يُستردَّ، ويُنقل شمالاً.
ولقد أجلسته إلى جانبي على المائدة
وبندقيتي مسندة إلى الزاوية.

[١١]

ثمانية وعشرون فتى يسبحون عند الشاطئ
ثمانية وعشرون فتى صديقًا.
وثمة، ثمانية وعشرون عامًا من الحياة النسوية
وكلها أعوام وُحدة...
إنها تمتلك المنزل الجميل عند مرتفع الشاطئ
وهي تخفي وراء ستائر النافذة
أثوابها الأنيقة الغالية
مَنْ مِن الفتيان الثمانية والعشرين تحبه أكثر؟
الأقرب منها هو الأجمل لها.

إلى أين تمضي سيدتي؟

إنني أراك تثيرين رذاذ الماء هناك

لكنك ما زلت حبيسة غرفتك.

جاء الفتى التاسع والعشرون إلى الشاطئ

راقصًا، ضاحكًا...

لم يرها الباقون

لكنها رأتهم وأحبتهم.

كانت لحى الفتيان تتألق بالماء المتحدر من لممهم الطويلة

جداولَ صغيرةً على أجسادهم.

يد خفية تهبط مرتجفة على هياكلهم وأضلاعهم.

الفتيان يطفون على ظهورهم، وبطونهم البيض تحدق بالشمس...

إنهم لا يدرون الأسرع منهم

ولا يدرون من يلهث وينسحب

بصُلبٍ واهنٍ منحنٍ

إنهم لا يعرفون من يرشّونه بالرذاذ.

[١٢]

صبي القصّاب ينزع ملابس الذبح

أو يحدّ سكينه على دكة السوق

وأنا أتسكع معجبًا ببديهته الحاضرة

وحركته الخفيفة...

وتوقّفه.

الحدّادون ذوو الصدور الشَعْرَاء المسخَّمة

يحيطون بالسندان.

كلٌّ ومطرقته الثقيلة

إنهم يطرقون معًا

والنار لاهبة الحرارة

من العتبة التي تستقبل الشرر

أتتبّع حركاتهم

وخصورهم الدقيقة التي تلعب حتى مع أذرعهم الضخمة

المطارق تندفع مرة

المطارق تبطئ مرة

المطارق تهبط واثقة

إنهم يتعجّلون، كل يضرب في موضعه.

[١٣]

الزنجي يتشبث بلُجُم خيوله الأربعة

والكتلة الصخرية تتحرك تحته مربوطة بالسلسلة

الزنجي الذي يسوق عربة الأحمال

يقف ثابتًا طويلاً على رجل واحدة

وقميصه الأزرق ينحسر على رقبته الغليظة وصدره

ويتدلى على عجيزته.

إن نظرته هادئة آمرة

إنه يدفع مقدمة قبعته عن جبهته

والشمس تسقط على شعره الجعد وشاربيه

تسقط على سواد أطرافه الجميلة الصقيلة.

إنني أود هذا العملاق الرائع

وأحبه.

أنا لا أتوقف هناك، إنما أمضي . . . أيضًا.

أنا الذي أعانق الحياة ما دمت سائرًا

سواء إلى خلف أو إلى أمام

وسواء انعطفت قليلاً أو كثيرًا ـ

لن أهمل شخصًا أو شيئًا

إنني أتمثل كل شيء، لنفسي ولهذه الأغنية.

أيتها الثيران التي تضيق بالنير والسلسلة

أو تتوقف عند الظلة الظليلة

ما الذي تعبّر عنه عيونك؟

يتراءى لي، أنه أكثر من كلِّ ما قرأته مطبوعًا طوال حياتي.

تثير خطاي علجوم الغابة وبطة الغابة، وأنا في جولتي البعيدة

إنهما يفيقان معًا

ويدوران معًا بطيئينِ

أومنُ بالأجنحة

وأرحّبُ بأن يلاعبني الأحمر والأصفر والأبيض

وأحدق مليًا بالأخضر والبنفسجي وتاج العُرْف

ولا أحتقر السلحفاة لأنها لم تكن غير سلحفاة

فأبو زريق الغابةِ لم يدرس السلّم الموسيقي، لكن ترديده يعجبني

ونظرة الفرس الكَميت تُخجل غباوتي.

[١٤]

ذكرُ الأوز الوحشي يقود سربه في الليل البارد

يقول، يا ـ هونك، ويرسلها إلي من علٍ، مثل دعوة

قد يظنها الوقح بلا معنى

أما أنا المنصت إليها

فأجد غايتها ومكانها، هناك، عاليًا في السماء الشتائية.

ثور الموظ الشمالي ذو الحوافر الحادة

والقطة على حاجز المنزل

وطائر القرف

وكلب البراري
والخنانيص الوليدة وهي ترضع أمها
وفراخ الدجاجة الرومية ذات الجناحين نصف المنشورين
إنني أرى فيها نفسي.
والقانون القديم نفسه.

آثار قدمي على الأرض تثير مائة عاطفة
مائة عاطفة تهزأ بقدرتي على اجتلائها.

أحب الذين يترعرعون في البرية
الرجال الذين يعيشون بين الأنعام
أو مع طعم المحيط والغابات
بناة السفن وقائديها، وذوي الفؤوس والمطارق
وسائقي الخيول...
إنني أستطيع أن آكل وأنام معهم، أسبوعًا آخر.

أنا الأكثر عاديّةً، والأيسر والأقرب
إنني أنطلق لفرصي
وأهبُ من أجل أن أستردّ الوفير
فرحًا بأن أمنح نفسي لأول ما يأخذني
ـ غير مرتج السماءَ أن تدنو مستجيبةً لنيتي ـ
موزّعًا إياها، إلى الأبد، دون مقابل.

المغنية ذات الصوت الكونترالتو وهي تغني في عِلّيَة الأرغن.

والنجار إذ يعالج لوحته

ولسانُ مسحاجه يصفر صَفرته الوحشية العالية.

والمتزوجون وغير المتزوجين

وهم يعودون إلى وجبة الشكر في منازلهم.

والربّان وهو يمسك بقطعة البولنغ

ويقذفها بذراع قوية.

والمساعد وهو يقف منتصبًا في سفينة صيد الحيتان

بالرمح والحربون.

وصياد البط وهو يمشي بخطى صامتة حذرة.

والشمامسة يصطفون متصالبي الأيدي في المذبح.

والفتاة الحائكة تتحرك خلفًا وأمامًا مع صوت العجلة الكبيرة.

والمزارع وهو يقف عند المشارب

في جولة يومه الأول

وينظر إلى الشوفان والجاودار.

والمجنون وهو يؤخذ أخيرًا إلى مستشفى المجانين حالةً ثابتةً.

ومرتّب الحروف ذو الشعر الأشيب والفكين الهزيلين

يعمل أمام صندوقه،

إنه يدير كيس تبغه بينما تحدّق عيناه في المخطوطة.

والأطراف المشوّهة المربوطة على طاولة التشريح
والفتاة ذات الدم ربع الزنجي
تباع على منصة النخَّاس.
والسكّير يطأطئ رأسه عند مدفأة المشرب.
الميكانيكي يرفع كُميه
والشرطي يتابع مسيرته
والبواب يسجل أسماء الداخلين
والفتى يقود العربة السريعة
(إنني أحبه وإن لم أعرفه)
والخلاسي يشد سيور جزمته ليشترك في السباق
ورماية الديك الرومي الغربي تجتذب الشباب والشيب
بعضهم يستند إلى بندقيته
وبعضهم يجلس على لوح
ومن الحشد يبرز القناص
يتخذ وضعه، ويخفض بندقيته.
مجموعات المهاجرين الجدد تغطي أرصفة الميناء،
وبينما يعزق الأُجراء حقل السكر
ينظر إليهم المراقب وهو على سرجه.
البوق ينطلق في قاعة الرقص مناديًا
والسادة يسرعون إلى رفيقاتهم
والراقصون ينحنون لبعضهم.

والفتى مستلقٍ يقظًا في العِلِّية المسقوفة بخشب الأرز
وهو ينصت إلى موسيقى المطر.
وحيوان الولڤرين يضع على الخليج فخاخه التي ستشبع الهورون.
والهندية الحمراء ذات الثياب الصفر
تبيع الأخفاف والأكياس الخرز.
ومتذوق الفن يحدّق في المعرض
بعينين نصف مغمضتين منحرفتين...
وبينما يثبّت البحارة سفينتهم البخارية
يمد المعبر إلى الشاطئ ليهبط المسافرون.
الشقيقة الصغرى تمسك بشلّة الخيوط
بينما تلفها الكبرى كرةً
وتتوقف، بين آن وآن، لتعقد الخيوط.
والمتزوجة منذ عام
تستعيد عافيتها
فرحةً بأنها وضعت وليدها الأول قبل أسبوع.
والفتاة اليانكية ذات الشعر النظيف
تعمل على ماكينة الخياطة
أو في المصنع
أو في المطحنة.
وعامل التبليط يعتمد على عربته ذات الذراعين
تقرير الصحفي يندفع على دفتر الملاحظات.

والخطّاط يخطّ حروفه بالأزرق والذهب.

وفتى القناة يخبّ على درب جرّ القوارب.

والمحاسب يعدّ على منضدته.

والحذّاء يعالج خيطه بالشمع.

والقائد يضبط موسيقى فرقته، والعازفون كلهم يتبعونه.

والطفل يُعَمَّد.

والمتنصّر يقوم بطقوسه الأولى.

الزورق ينشر أشرعته في الخليج،

لقد بدأ السباق...

(كم هي لامعةٌ، الأشرعة البيض!).

وراعي البقر يرقب قطيعه ويغنيه.

والحمّال يعرق وحمله على ظهره

(والمستأجر يلحف في المساومة على السنت الواحد).

والعروس تسوّي ثوب زفافها الأبيض.

وعقرب الساعة يتحرك بطيئًا.

ومدمن الأفيون يتمدد، متيبّس الرأس، مفغور الشفتين.

والعاهرة تجرر شالها، وقبعتها تهتز على عنقها النحيل...

الحشد يضحك من شتائمها البذيئة

والرجال يصفّرون، ويغمز بعضهم لبعض

(أيتها البائسة، انني لا أضحك من شتائمك)

(ولا أصفّر لك).

والرئيس يعقد مجلسًا

وهو محاط بأمناء السر الكبار.

في الشوارع تسير ثلاث كهلات وقورات

متشابكات الأيدي.

بحارة سفينة الصيد ينضّدون طبقة أثر طبقة

من سمك الهلبوت.

وابن الميسوري يقطع السهول مع أثاثه وسوائمه.

والمحصّل وهو يدخل القطار

ينبه الناس برنين النقد.

العمال يرصفون أرضية المنزل

وآخرون يكسون السقف بالصفيح

والبناؤون ينادون طالبين الملاط.

إنهم في صف واحد

كل واحد منهم يحمل على كتفه «الطاسة»

ويسلّمها لمن يليه.

الفصول تتَابع

والجماهير الحاشدة تتجمّع

إنه اليوم الرابع من الشهر السابع[1]

(أي اطلاق مدافع وأسلحة خفيفة!)

---

(١) يوم ٤ تموز هو عيد الاستقلال الأميركي.

الفصول تتَابع

الحارث يحرث، والحاصد يحصد..

وقمح الشتاء يساقط على الأرض.

وعند البحريات يرقب صياد السمك الرامح

وينتظر عند ثقب فوق المياه المتجمّدة.

الأجذال تنتصب كثيفةً حول الفسحة

والرجل الذي وضع يده على الأرض الجديدة

يضرب بفأسه عميقًا.

رجال الأطواف يسرعون في الغسق

عند حرج القطن أو شجر الجوز الأميركي

والباحثون عن حيوان «الكورن»

يمضون إلى أصقاع النهر الأحمر أو التنيسي أوراكنساس.

والمشاعل تشع في العتمة المخيمة على چاتاهوچ أو التاماهو.

والأجداد يتعشّون

وأحفادهم، وأبناء أحفادهم، حولهم.

وفي جدران اللبِن

وخيام الخيش

يرتاح الصيادون وأهل الفخاخ

بعد رياضة النهار.

المدينة تنام، والقرية تنام.

الأحياء ينامون، والأموات ينامون.

الزوج العجوز جنب زوجته

والزوج الفتيّ ينام جنب زوجته...

هؤلاء...

هؤلاء يرعونني في سرهم

وأنا أرعاهم في علني.

هكذا هو الأمر، للذين هم أنا، قليلاً أو كثيرًا

ولهؤلاء، منفردين ومجتمعين:

أغنيةُ نفسي.

[١٦]

إنني من الشيِب والشبان

من الحمقى والحكماء

مُشيح عن الآخرين، متوجّه إلى الآخرين

لي أمومة الأم، وأبوّة الأب

طفل ورجل، أنا

محشوّ بالخشن والناعم

واحد من أمةٍ بين أمم عديدةٍ، صغراها ككبراها

جنوبي وشمالي، أنا

أعيش مزارعًا مضيافًا وقورًا عند «أوكوني»

ويانكيٌّ أنا، أسيرُ مُتاجرًا، مفاصلي أوهن المفاصل، وأقواها.

وكنتاكيٌّ أنا، أسير في وادي «الكهورن»

محتذيًا رِقّ الغزال.

لويزيانيٌّ أنا.

وجورجيٌّ أنا.

مراكبي عبر البحيرات والخلجان والشواطئ.

وصيادٌ لذوات الفراء

في مربعي، منتعلًا أحذية الثلج الكندية.

أو في الغابة

أو مع صيادي السمك في «نيوفاوندلاند».

في مربعي، في أسطول قوارب الثلج

مبحرًا مع الجميع. أو مثبتًا الأشرعة.

في مربعي، على تلال «ڤيرمونت» أو غابات «مين» أو مزارع تكساس.

رفيق أهل كاليفورنيا

رفيق أهل الشمال الغربي الأحرار

رفيق أهل التطواف والوقّادين

رفيق كل أولئك الذين يصافحون ويرحّبون، حين يكون اللحم والشراب.

متعلم مع الأبسط، معلم للأعلم

بداية أولى، لكنها خبرة آلاف آلاف الفصول.

انني من كل قوم وجنس

من كل طائفة ودين

مزارع - ميكانيكي - فنان - سيد - بحار - كويكريّ

سجين - عشيق - مشاكس - محام - طبيب - قسيس

إنني أقاوم كل ما هو أفضل من تنوعي وانساني

أتنفس الهواء، لكنني أخلّف ورائي الكثير منه

إني لست مقيّدًا، فأنا في موضعي،

الفراشة وبيوض السمك، في موضعها

والشموس المعتمة التي لا أراها، في موضعها

المحسوس، في موضعه

وغير المحسوس، في موضعه.

[١٧]

حقًا، ها هي ذي أفكار الناس

من مختلف العصور والبلدان.

إنها ليست، في الأصيل، أفكاري

وهي، إن لم تكُ لك، كما هي فليست بشيء.

إن لم تكُ اللغز، وحلّ اللغز، فليست بشيء

ها هو ذا العشب الذي يَنجمُ حيث الأرض والماء

ها هو ذا الهواء المشترك الذي يغسل العالم.

[١٨]

مع الموسيقى الضّاجة أجيء...

بأبواقي وطبولي.

إنني لا أعرف المارشات للمنتصرين، حسب...

إنما أعزفها للمهزومين والمذبوحين أيضًا.

هل بلغك أن الخير أن تربح يومك؟

أقول إن الخير أن تفشل كذلك...

إن المعارك تُخسَر، وتُربح، بتلك الروح ذاتها.

إنني أدق الطبول للموتى...

وأنفخ في آلاتي الموسيقية أعلى الأصوات وأبهجها...

من أجلهم...

الحياة لأولئك الذين غرقت مراكبهم الحربية في البحر

وأولئك الذين غرقوا في البحر

لكل القادة الذين خسروا معاركهم

ولكل الأبطال الذين غُلبوا...

للأبطال المجهولين الذين لا يحصون

كما هي للأبطال العظام المشَهَّرين.

[١٩]

ها هي ذي المائدة مهيأة للجميع...

ها هو ذا اللحم للجوع الطبيعي...

المائدة للأشرار، كما هي للأخيار

إني أدعوهم جميعًا

لن أترك مهملاً مبعَدًا

فلقد دعوت المرأة، وصائد الاسفنج، واللص

والعبد الغليظة شفتاه

والمصاب بالمرض الجنسي

لن يكون هنا فرق بينهم وبين الآخرين.

ها هي ذي ضغطة اليد الخجلى

ها هو ذا حفيف الشعر وطيبه

ها هي ذي شفتيّ على شفتيك

ها هي ذي غمغمة الحنين.

هذان هما العمق والسمو اللذان يعكسان وجهي

ها هو ذا، ما أُسرُّه، وما أعلنه.

أتظنين لي قصدًا خبيثًا؟

فأمطار الشهر الرابع. لها، هذا القصد

و«الميكا» على جانب الصخرة، لها، هذا القصد

أتظنينني مدهشًا؟

هل يُدهش الضياء؟

هل يُدهش طائر الحميراء المفرد في الغابات؟

هل أدهِشُ أكثر؟

الساعة، أسرّكِ أشياء

لن أبوح لأيٍ كان

لكني سأخبرك.

[٢٠]

مَن هناك؟

متلهفًا ضخمًا، غامضًا، عاريًا؟

كيف أستخلصُ القوة من اللحم الذي آكلُ؟

ما هو الانسان؟

ما أنا؟

ما أنتَ؟

كل ما أسجّله لي، لتجعلْه لك

وإلا فضائع وقتك الذي

لن أتباكى على العالم.

لن أقول إن الأشهر أبخرة

وإن الأرض ليست سوى عويل وقذارة.

إنني ألبس قبعتي كما أشاء، داخل الأماكن وخارجها.

لماذا تَجب علي الصلاة؟

لماذا أتعبّد؟

لقد ركعتُ أزمانًا...

وحُلّلتُ حدّ الشعرة..

وتشاورت مع الأطباء

وحسبت حسابي...

فلم أجد عظامي أعذب امتلاءً من العصي.

في كل الناس أرى نفسي

لا أزيد عليهم بحبة شعير، ولا أنقص

وما أقوله في نفسي ـ إن خيرًا أو شرًا ـ أقوله فيهم.

أعلمُ أني سليم معافى

أشياء الكون المختلفة تسيل أمامي

كلها مكتوبة لي، وعلي أن أعرف معنى الكتابة.

أعلمُ أني لا أموت

أعلم أن مداري لا يمكن أن تمحوه بوصلة النجار

وأنني لن أنتهي.

أعلمُ أني جليل مهيب

أنني لا أرهق روحي بطلب الثأر لنفسها

أو بطلب أن تُفْهَم.

إذ أرى أن القوانين الأولى لا تعتذر لأحد

(أظن أنني لا أتعالى أكثر مما بنيت بيتي عليه).

أنا موجود، كما أنا

هذا يكفي

حتى لو لم يعلم بي أي امرئ في العالم، فسأجلس رضيًّا

ولو علم بي كل امرئ وأي امرئ، فسأجلس رضيًّا

ثمة عالم واحد يعلم بي، وهو ـ لي ـ العالم الأكبر

إنه نفسي

وسواء، بلغت منزلتي اليوم. أو بعد عشرة آلاف سنة

أو عشر ملايين سنة

فإني أستطيع أن آخذها ـ فرِحًا ـ الآن

وبالفرح نفسه أستطيع أن أنتظر

إن مثبت قدمي من الغرانيت

وأنا أسخر مما تسمونه انحلالاً

وأعرف سعة الزمن.

[٢١]

أنا شاعر الجسد، وأنا شاعر الروح

هناءات الجنّة معي، وعذابات الجحيم معي

أغدق الأولى على نفسي

وأترجم الثانية لغةً جديدة.

أنا شاعر المرأة، كما أنا شاعر الرجل

وأقول: عظيم أن يكون الانسان امرأة، وأن يكون رجلاً

وأقول: لا أعظمَ من أم البشر.

إني أغني أغنية البهجة أو الكبرياء

لقد تفادينا، وتنصّلنا، بما يكفي

وأنا أقول: إن هذا هو حجم النماء.

أتفوقتَ على البقية؟ أأنت «الرئيس»؟

إنها تفاهة..

فلسوف يصلون، جميعًا، إلى أكثر من هناك

ولسوف يتجاوزون.

أنا من يسري مع الليل اللطيف المتطاول

ومن ينادي البرَّ

والبحرَ الذي يكاد يخفيه الليل.

لتلتحم بي أيها الليل العاري النهدين

لتلتحم بي أيها الليل الجاذب المنعش

يا ليل رياح الجنوب

يا ليل النجوم الساكن المترجّح

يا ليل الصيف

أيها الليل المجنون العاري.

لتبتسمي أيتها الأرض الشهّاء ذات النسمات الباردة!

يا أرض الشجر الذي يغفو، الشجر الذي يسيل!

يا أرض الغروب المهاجر

أرض الجبال المضبّبة القنن!

أرض المطر الشفّاف من القمر المؤشّر بالزرقة قبل هنيهة

أرض النور والعتمة اللذين يتلاعبان بالمد النهري!

أرض الرمادي الشفّاف لسُحُب تزداد تألقًا وصفاءً من أجلي!

أيتها الأرض البعيدة مرمى الذراعين

أيتها الأرض الثرية بأزهار التفاح!

ابتسمي.

إن حبيبك لقادم.

أيتها الهتيكة...

لقد منحتني حبكِ

لذا أمنحكِ حبي!

آه، أيها الحب المتشهّي الذي لا يمكن البوح به!

[٢٢]

وأنت أيها البحر!

إني أتطامن اليك أيضًا...

إني أخمّن ما تعني

إني أمْسِك من الشاطئ بإصبعك الملتوية التي تدعوني

إني أؤمن بأنك ترفض الارتداد دون أن تحس بي...

إذاً...

فليأت دورنا:

أتعرّى...

فأبعدني عن مرأى اليابسة

وأضجعني الضجعة الناعمة

ولتؤرجحني في نعاس متماوج

ولتغمرني بالرطوبة العاشقة...

فأنا أقدر أن أردّ لك الجميل.

يا بحر جراحات الأرض المديدة

أيها البحر المتنفّس أنفاسك الواسعة المتشنّجة

يا بحر دموع الحياة

والقبور المنتظرة التي لم تحفر بعد

يا مثير العواصف

أيها النزق والمرهف

إنني مثلك

ذو الوجه الواحد

وذو كل الوجوه.

أنا، أيضًا، لي المد والجزر

لي الكره والتسامح

لي حب العشاق، وحب أولئك الذين ينامون متعانقين

أنا الشاهد بالحنان

(هل أقدّم قائمة بأشياء بيتي، وأهمل البيت الذي يحفظها؟)

أنا لست شاعر الخير وحده

فلست أرفض أن أكون شاعر الشر أيضًا،

أي هراء هذا الحديث عن الفضيلة والرذيلة؟

الشر يدفعني

وإصلاح الشر يدفعني

وأنا أقف غير مبال...

إن سبيلي ليس سبيلٍ متسقّط الأخطاء

ولا سبيل الرافضين

فأنا أمسّد جذور كل شيء ينمو.
أتخشى درنة السل من الحَمْل الطاهر؟
أتظن القوانين الإلهية ينبغي أن يعاد فيها النظر؟
إني أرى في جانب من الأرض ميزانًا
وفي جانبها الآخر ميزانًا
وأرى المبدأ السهل
يعيننا كالمبدأ الراسخ
وأرى أفكار اليوم وفعاله
نهوضنا الأول، ومنطلقنا الأول
وهذه اللحظة التي جاءت إلي منذ عشرات الملايين
لا أحلى منها اليوم.

لا عجب فيمن عمل حسنًا، في الماضي
ولا فيمن عمل حسنًا، اليوم
العجيب الدائم هو:
كيف يمكن أن يوجد امرؤ لئيم أو جاحد؟

[٢٣]

كلمات العصور السالفة تظل تتفتّح إلى الأبد
أما كلمتي فكلمة عن الجديد، الكلمة ـ الجماهير

كلمة الايمان الذي لا يتردد

الآن، أو الأبد، هما الشيء نفسه عندي

إنني أتقبّل الزمن مطلقًا.

إنه وحده الذي لا ينصدع

إنه وحده يحيط بالكل، ويكمل الكل

ذلك الإندهاش الغامض المحيّر الذي يكمل وحده الكل.

إني أتقبّل الواقع، ولا أجرؤ على مساءلته

المادية أولاً

والفكرة أخيرًا.

ليعش العلم الوضعي!

لتعش التجربة الدقيقة!

ضعِ الوذْنة[1] مع شراب التفاح وأفنن الليلك

ها هو ذا مؤلف المعاجم

ها هو ذا الكيمياوي

ها هو ذا الذي يقعّد النحو من الظروف القديمة

أولاءهم البحارة الذين يُنزلون السفينة في بحار خطرة مجهولة

---

(١) الودنة: جنس نبات معمّر للتزيين.

ها هو ذا الجيولوجي

وها هو ذا الرياضي.

أيها السادة، لكم التشريف الأول دائمًا!

إن حقائقكم نافعة، لكنها ليست مسكني

فأنا أدخل بها في منطقة مسكني.

الذين يذكّرونني بالممتلكات، لا يخبرون كلماتي إلا قليلاً

أما الذين يذكّرونني بحياةٍ لم تُعرف، والحرية، والخلاص -

فهم يخبرون كلماتي بالكثير

ولا يتحدثون طويلاً عن الخنثى والخصيّ

ويفضّلون الرجال والنساء الأكفّاء

ويدقّون صنج الثورة النحاسي

ويقفون مع المشردين

ومع أولئك الذين يكيدون ويتآمرون

[٢٤]

والت ويتمان

مواطن العالم

ابن مانهاتن...

فائر، جسدي، شهواني

يأكل، ويشرب، وينجب.

إنه ليس عاطفيًا
ليس متعاليًا فوق الرجال والنساء
وليس بعيدًا عنهم.
ليس متواضعًا أو غير متواضع.

أخلعوا مغاليق الأبواب.
واخلعوا الأبواب ذاتها من أطرها.

من يُهنْ آخرَ يُهِنِّي
وما فُعلَ شيء أو قيل. ألا ارتدّ علي.

عبري، تهدر الأمواه وتصخب
عبري، التيار والمؤشر.

إنني أقول كلمة السر البدائية
وأعطي شارة الديمقراطية
ووالله، ما قبلت شيئًا لن يناله الآخرون، سواسيةً.

عبري، أصوات خرساء مديدة عديدة

أصوات أجيال متشابكة، من سجناء وأرقّاء

أصوات المرضى والبائسين واللصوص والأقزام

أصوات عصور التهيؤ

والخيوط التي تصل بين النجوم والأرحام ونقطة الآباء

وحقوق الذين داسهم الآخرون

أصوات المشوّهين، والتافهين، والحمقى، والمحتقرين.

الضباب في الجو...

والخنافس تدفع كرات من الدمن.

عبري، أصوات ممنوعة

أصوات الجنس والشهوة

أصوات محجبة، أرفع عنها الحجُب

أصوات غير سليمة، أصفّيها وأحولها.

لو عبدتُ شيئًا واحدًا أكثر من سواه

فلأنه امتداد جسدي، أو امتداد بعضه

جِبِلّةً رقراقةً ستكون، مني

ستكون أفاريزَ ومستجمّات ظليلة

ستكون مهرًا مؤزرًا

وكل ما يلامس مني الأرض الحريثة، ستكون

أنتَ، يا دمي الغنيّ

إن نهرك الحليبي، عري حياتي

صدرًا لصِقٌّ الصدور الأخرى... ستكون

وسيكون ذهني، عصبتكم السرية

والقش النثير على الرأس واللحية والعضل، ستكون

نسغَ شجرة الاسفندان المتقاطر، ستكون

وعود الذرة السامق، ستكون

وشمسًا وهَابةً، ستكون

والأبخرة التي تضيء وجهي وتستره، ستكون

وجداول وأنداء عذبةً، ستكون

ورياحًا تلمسني نعمة أعضائها التناسلية، ستكون

حقولاً واسعةً

وأغصانَ بلّوطٍ

ومتسكّعًا في مسالكي الملتوية، ستكون

الأيدي التي أمسكتُ

والوجهَ الذي قبّلتُ

والشخصَ الذي لامستُ، ستكون.

إنني أتباهى بنفسي

لقد كان لي نصيبي، وإنه لرائع

كل لحظة تهزني فرحًا

وكل حدثٍ يهزني فرحًا

لا أقدر أن أقول كيف تنحني ركبتاي

ولا أقدر أن أقول السبب في أهون رغبة لي.

لا أعرف سبب الصداقة

ولا أراجع الصداقة

وعندما أنهض من كبوتي

أتوقف فأفكر إن كانت حقًا.

مجد الصباح على نافذتي

يسعدني أكثر من ميتافيزيقا الكتب.

منتظرًا بزوغ الفجر

يأتي الضوء الباكر ليبدد الظلال الوسيعة

ويعذُب مذاق الهواء.

أشياء العالم.

تَصَّاعد، صامتةً، في وثبات جريئة

طافحةً بالحيوية

وتتقافز، عاليةً، دانيةً.

وشيء لا أعرفه يطلق إلى العلاء مستدقات مغتلمة

وبحار من العصير المتألق تملأ السماء

إنه الشرق المتحدي، هذه اللحظة

والعلاء الساحر.

فكر، إذاً، هل ستكون، السيد!

[٢٥]

ما أسرع ما يستطيع شروق الشمس، هذا الباهر الهائل، أن يقتلني
لو لم أطْلع الشروق، اليوم، ودائمًا، مني.
نحن أيضًا، نصاعد، باهرين هائلين كالشمس
ونجد غايتنا، أيتها الروح، في هدأة الفجر وبرده.

صوتي يتتبّع ما لا تبلغه عيناي
وبدورة لساني أحتوي عوالم وعوالم.

النطق توأم لبصري
إنه غير كفء لقياس نفسه
إنه يحثّني، أبدًا، إنه يقول لي ساخرًا:
«والت، لديك الكثير، لِمَ، إذن، لا تطلقه؟
ابدأ الآن...
ولا تدعني أتلمّظ.
إنك لذو فصاحة...»
ألا تعرف أيها النطق كيف تتفتح البراعم تحتك؟
منتظرةً في العتمة
محتميةً بالصقيع.
القذارة تزيحها صيحاتي النبوية.

إني أسطّر الأسباب، لأوازن فيما بينها أخيرًا
ومعرفتي أعضائي الحيّة، تجعلني أتواكب ومعنى الأشياء كلها،
السعادة
(فليبحث عنها اليوم كل من سمعني ومن سمعتني)
يا موهبتي الأخيرة
إني أرفضكِ
أرفض أن أستبعد مني، ما أنا عليه حقيقةً...
فيا موهبتي الأخيرة:
احتوي العوالم
لكن، لا تحاولي أن تحتويني
اني أجمّع أرقكِ وأفضّلك بالنظر المحض إليك.
الكتابة والحديث لا يدلان علي
إني أحمل في وجهي هيأة الاثبات، وكل شيء آخر
وبغمغمة من شفتي أدحض المتشكك.

[٢٦]

ليس لي الآن سوى أن أنصت
لأصوغ ما أسمعه في هذه الأغنية
ولأجعل الأصوات فيها:
إنني أسمع تغريد الطير

وحفيف الذرة النامية

وحديث اللهب

وطقطقة الفروع التي تنضج طعامي.

إنني أسمع الصوت الذي أحب

صوت الصوت الانساني

إنني أسمع كل الأصوات، مندفعةً معًا

مختلطةً، ممتزجةً، أو متتابعةً

أصوات المدينة

أصوات النهار والليل

أصوات فتية تتحدث إلى من يحبها

وضحكة العمال العالية، لصداقة انفصمت،

والأصوات الواهنة للمرضى

صوت القاضي المتشبّث اليدين بالمنضدة ـ

وشفتاه الشاحبتان تعلنان حكمًا بالإعدام.

أصوات العمال وهم يفرغون السفن

صوت رافعي المرساة

رنين أجراس الانذار

صيحة الحريق

وهدير المكائن الناعم، وعربات أنابيب المياه ـ

ذات الدقات المنتظمة والألوان الزاهية.

الصفّارة البخارية، وقافلة العربات المقتربة

والمارش البطيء أمام السريّة التي تسير اثنين اثنين

(إنهم ذاهبون لحراسة جثة ما)

(وأطراف الراية متشحة بالموسلين الأسود)

إنني أسمع الفيولونسيلو (إنه القلب الشاكي للشاب)

أسمع البوق ذا الكباسات، إنه ينزلق سريعًا في مسمعي

ويثير دقات مجنونة، عذبة، في أحشائي وصدري.

أسمع الجوقة، إنها أوبرا جليلة

حقًا، إن هذا لموسيقى، إنها التي أستعذب

مغني «التينور» العالي والطريء كالخليقة.. وتملؤني

والأمالة الدائرة لفمه، تتدفق فيّ، وتملؤني

أسمع مغنية السوبرانو المتمرسة

(آهٍ لِمَ تفعل؟)

والأوركسترا تقذف بي أبعد من «أورانوس»

إنها لتثير فيَّ خصالاً لم أكن أعرف أني أمتلكها

إنها تبحر بي

عاري القدمين...

مدغدغ القدمين، بالموج المترجح.

إن عاصفةً مريرةً غاضبةً تجتاحني

إنني منقطع الأنفاس

إنني أهوي وسط المورفين المعسّل

مختنقًا بحشرجة الموت.

آخيرًا، استفيق لأحس بنبضة النبضات

إنها ما نسميه: الكينونة

[٢٧]

أن تكون على أي صورة، ما الذي يعنيه هذا؟

(نحن ندور وندور، جميعًا، ونعود إلى مكاننا)

ترى لو أن كل شيء لا يتطور، فلنكتفِ بصَدَفَة البزّاق.

أنا لست صَدَفَة يباسًا.

إن لي موجهين سراعًا، منتشرين علي، في مسيرتي ووقفتي

وهم يمسكون بالأشياء، ويقودونها فيّ....

تكفيني العطفة، والضغطة، واللمسة، لأكون سعيدًا

أريد أن ألتصق بالآخر...

قدر ما أستطيع.

[٢٨]

ألمسةٌ هي؟ هذه التي منحتني هويةً جديدة؟

اللهب والأثير يندفعان في عروقي

وجسدي ودمي يطلقان البروق التي تصيب ما اختلف عن نفسي

ومن كل جانب تُصلّب أطرافي

وتوتِّر قلبي حتى قطراته الأخيرة

وتحرمني أفضل ما فيّ...

وتخلع عني ثيابي، وتمسك بي من خصري العاري

مغرقةً اضطرابي بسكون ضوء الشمس والمراعي

مُبعدة حواسي.

ترعى على أطرافي

دون اعتبارٍ لقوتي الناضبة وغضبي

إنها تأتي ببقية القطع لتُمتعَه حينًا،

ثم يتّحد الجميع، ويقفون على نشز من الأرض، يغيظونني

الحراس يهجرون مواقعهم مني

ويتركونني أعزل أمام المغيرِ

إنهم جميعًا، آتون إلى النشز، متَّحدين ضدي

لقد أسلمني الخونة.

إنني أتكلم وحشيًا، وأفقد فطنتي...

فأنا ـ لا سواي ـ الخائن الأكبر...

لقد ذهبت بنفسي أولاً، إلى النشز...

وقد حملتني يداي إلى هناك.

أيتها اللمسة الجبانة

ما الذي تصنعين؟

إن صوتي مختنق في حنجرتي.

أَفتَحَ الأبوابَ طوفانُك!
إن هذا لكثير عليّ.

[٢٩]

أيتها اللمسة العمياء، العاشقة، المقاتلة
أيتها اللمسة المغمدة، المغطاة، القاطعة
أَتتألمين هكذا لأنك فارقتني؟
الوداع تتبعه الأوبة
استيفاء أبدي، لدينٍ أبدي.
المطر الهائل، يغدو هطّالاً في آتية الأيام
والبراعم تكتنز عند لجام الفرس
والأرض الواسعة، ذهبية مليئة بالرجولة.

[٣٠]

الحقائق كلها، تنتظر في الأشياء كلها
إنها لا تسرع البلوغ
ولا تقاومه،
إنها لا تنتظر ملقط الجرّاح
الغَمْرُ مهمّ عندي، مثل سواه

(ترى ما الأقل أو الأعظم من لمسة؟).

المنطق والطقوس لا تقنعني
ورطوبة الليل تتغلّل في روحي
(وهكذا يكون كل ما يبرهن نفسه لكل رجل وامرأة)
(هكذا يكون ما لا ينكره أحد)

لحظةٌ، وقطرةٌ، مني، ستعيد توازن ذهني
أومن بأن الصلصالة الرطبة ستكون عشاقًا أو مصابيح
وأن مختبر المختبرات هو لحم الرجل أو المرأة
وأن للقِمَّة والزهرة ما يحسّان به معًا
وأنهما سيفرّغان من هذه العبرة ما لا يُحَدُّ
حتى يبهجنا الواحد والجميع
وحتى نبهجهم نحن.

[٣١]

أومنُ بأن ورقة العشب ليست أقل من حركة النجوم
النملة كاملة، وذرة الرمل، وبيضة الصعوة[١]

(١) الصعوة: طائر صغير مطوق.

ودورة الشجر

وشجرة التوت لها أروقة السماء

وأهون ما في يدي يحتقر كل المكائن

والبقرة التي تجترّ خفيضة الرأس، أفضل من التمثال

والفأر معجزة تدحض الجاحدين.

أرى أنني صنو الغرانيت، والفحم، والطحلب، والفاكهة ـ

والحبوب، والجذور المأكولة

وأنني مسكون بالحيوان والطير

وأنني قد تركت السرى خلفي، لما هو خلفي

لكني أنادي أي شيء ليعود لي حين أريده.

عبثًا، السرعة، والخجل

عبثًا، تقذف الصخور البركانية الحرارة القديمة في مساري

عبثًا، يتراجع الماستادون[1] تحت عظامه الرميم

عبثًا، يسكن المحيط الحُفر، وترقد الوحوش الجبارة في الهوى

عبثًا، تتخذ السقاوة السماء منزلاً

عبثًا، تسعى الحية بين العشب والشجر

عبثًا، يلجأ الغزال إلى الممرات العميقة في الغاب

عبثًا، يبحر طائر «الأوك»[2] شمالاً حتى لبرادور...

---

(١) الماستادون: حيوان منقرض يشبه الفيل.

(٢) الأورك: طائر جارح.

إني سأتبعهم جميعًا...

عَجلاً..

وأرقى حتى العش، في شق الجرف الجبلي.

أرى أنني سوف آلف الأوابد، فهي رائعة رائعة

انني أقف لأنظر إليها طويلاً طويلاً

الأوابد لا تأسى لحالها، ولا تتشكى حالها

إنها لا تستيقظ طوال الليل باكيةً خطاياها

إنها لا تضجرني بحديثها عن واجبها ازاء اللّٰه

ليس ثمة حيوان ساخط، ولا مسكون بجنون التملك

ليس ثمة حيوان يركع لآخر

ليس ثمة حيوان من فصيلته عاش قبل آلاف السنين.

لا أحد يرى نفسه، فوق الأرض بأسرها

ولا أحد يشقي نفسه، أكثر من الأرض بأسرها.

هكذا يبدون علائقهم لي، وأتقبّلهم

إنهم يأتونني بإشاراتي، ويمتلكونها

فأدهشُ...

من أين جاؤوا بهذه الإشارات؟

ترى، أمررتُ يومًا من هناك، فأضعتها ثمة؟

نفسي تندفع إلى الأمام: اليوم، وغدًا، وأبدًا

تجمع ما تجمع، وتبدي ما تبدي، سريعةً كالبرق

شاملةً، هادئة

ملتقطةً آنًا من أحب

وآنًا من أراه أخًا.

هذا المهر ذو الجمال الباهر

هذا المهر النشط المستجيب لتمسيدي

مرتفع الرأس والناصية

عريض ما بين الأذنين

الأطراف خفيفة، والذيل يثير غبار الأرض

العينان مليئتان بالمكر البرّاق

والأذنان دقيقتان

تتحركان مرّتين

منخراه يتوسعان حين يعانقه كعباي

وأطرافه المتينة ترتجف بهجةً، ونحن نخبّ ونعود.

أيها المهر...

إني لا أستخدمك إلا لحظةً

ثم أرفضك...

ترى، لِمَ أحتاج إلى خطاك، بينما أستطيع تجاوزَها؟

حتى لو وقفتُ أو جلستُ.

المكان والزمان.. إنني لأرى حقيقة ما ظننته

آن كنت متمددًا على العشب

وآن أرقد وحيدًا في مهجعي

وثانيةً، آن أسير على الشاطئ تحت نجوم الصبح التي تشحب،

كل أغلالي تغادرني

كوعاي يستقران في الحفر البحرية

وأنا أطوف سلاسل الجبال

وكفّاي تذرعان القارات.

إنني أسير برؤياي..

عند المنازل المربعة في المدن

وفي أكواخ الخشب، مخيمًا مع قاطعي الأخشاب

وعبر أخاديد الطرق...

عبر المسيل الناضب، والجدول الجاري

مقتلعًا الأعشاب من بستان البصل

أو عازقًا صفوف الجَزَر الوردي والأبيض

قاطعًا براري السڤانا

مذوّقًا في الغابات

مُنْشئًا...

باحثًا عن الذهب

مطوقًا الأشجار المشتراة حديثًا

محترقًا حتى ركبتي بالرمل الساخن

دافعًا قاربي في النهر الضحضاح

حيث يتمشى الفهد، جيئةً وذهابًا، على فنن عال

حيث يلتفت الوعل، غاضبًا، نحو الصياد

حيث الحيّة ذات الأجراس تتشمس على صخرة

حيث ثعلب الماء يقتات السمك

حيث التمساح الأميركي القوي الحراشف ينام عند النهير

حيث الدب الأسود يبحث عن الجذور أو العسل

حيث القندس يطبطب على الطنين بذنَبه المجذافي.

عبر السكّر النامي

عبر مزرعة القطن المزهوة بالأصفر

عبر الرّز في حقله الخفيض الرطب

عبر بيت المزرعة

ذي القمة المستدقة، والمخرمات، والأعشاب النحيلة المتدلية من الميازيب

عبر شجر البرسيمون الغربي

عبر الذُرة الطويلة أوراقها

عبر الكتّان الرقيق ذي الزهرة الزرقاء

عبر حنطة العلف البيضاء والسمراء، مترنمًا هناك مع الجميع

انني أذرُعُ الجبال...

عبر خضرة الجاودار، وهو يتمايل مع النسمة

جاذبًا نفسي، حذرًا، إلى الأعلى، متشبثًا بفروع ضئيلة

سائرًا في الممر المغطّى بالأعشاب

ضاربًا خلل أوراق الدغل

حيث طائر السمّان يصفر بين الغابات وحقول الذُرة

حيث الوطواط يطير عشية الشهر السابع

حيث الفراشة الذهبية الكبيرة تسقط في العتمة

حيث الجدول ينبع من جذور الشجرة الهرمة، مندفعًا نحو السهل

حيث السائمة واقفة تطرد الذباب بارتعاشاتها

حيث كيس الجبن يتدلى من المطبخ

حيث مساند الحطب المشتعل تباعد ما بين ألواح المصطلى

حيث نسجُ العنكبوت يتدلى شرائط من عوارض السقف

حيث مطارق السفر تهوي

حيث المطبعة تدور

حيث القلب البشري يخفق خفقاته العنيفة بين الضلوع

حيث المنطاد الشبيه بالرمح يرتفع سامقًا

(وأنا أرتفع فيه وأنظر إلى أسفل)

حيث عربة النجاة تُسحب بالأنشطة

حيث الحرارة تحضن البيوض الخضر الشاحبة في الرمل ذي النتوءات

حيث أنثى الحوت تسبح مع بعلها ولا تتخلى عنه

حيث السفينة البخارية تسحب وراءها راية دخان طويلة

حيث ذنب الكوسج يقطع الماء مثل شظية سوداء

حيث السفينة نصف المحترقة، ذات الشراعين، تمخر تيارات مجهولة

حيث المحار ينمو على سطحها الرشيق

وحيث الموتى يتعفنون في الداخل.

حيث الراية المزدحمة بالنجوم، تخفق في طليعة الكتائب.

انني أبلغ مانهاتن من الجزيرة الممتدة طويلاً.

وتحت نياغارا، يسقط الشلال مثل حجابٍ على وجهي.

ها أنذا...

عند عتبة منزل

عند حظيرة خيول من الألواح الخشنة

عند ساحة سباق

أو عند النزهة أو الرقصة أو لعبة بيسبول جيدة

في المهرجانات الرجالية، حيث الرقصات الصاخبة، والشرب، والقهقهة

في معمل شراب التفاح ـ

أتذوق المهروس البني، وامتص العصير بالقصبة

في قطاف التفاح، أريد مكافأتي قبلاتٍ، لما جمعت من فاكهة حمراء.

في التعداد، وحفلات الشاطئ

وتقشير عرانيس الذرة، وتشييد المنزل

حيث الطير المكّاء يرسل غرغراته العذبة ـ

يضحك، ويصيح، ويبكي

حيث كدْسُ التبن في ساحة الهُري

حيث السيقان الجافة متنثرة

حيث بقرة السفاد تنتظر في الزريبة

حيث الثور يتقدم إلى مهمة ذكورته

والجواد إلى الفرس

والديك يتبع الدجاجة.

حيث البقرة الصغيرة ترعى

حيث البط يختطف طعامه برجفات سريعة

حيث ظلال الشمس الغاربة تستطيل على السهوب المترامية الوحيدة

حيث قطعان الجاموس الوحشي

حيث الطائر الطنّان يغرد واهنًا

حيث عنق البجعة المسنّة ينحني ويلتف

حيث النورس الضاحك ينطلق مسرعًا إلى الشاطئ

حيث يضحك ضحكته شبه البشرية

حيث خلايا النحل تمتد على مصطبة سوداء في البستان ـ

يكاد يخفيها العشب المتطاول.

حيث طيور الحَجَل المطوقة تجثم حلقةً على الأرض، مبرزة رؤوسها

حيث عربات الدفن تدخل وسط متاهات الجليد والأشجار المتجمدة

حيث مالك الحزين يأتي ليلاً إلى طرف المستنقع ـ

ويقتات السرطان الصغير.

حيث رذاذ السابحين والغاطسين يبرد الهاجرة

حيث الجندي يصقل قصبته على شجرة الجوز عند البئر
عبر بساتين الليمون والخيار ذي الأوراق الفضية الأسلاك
عبر «المَلحة»[1]، وفُرجة البرتقال، وتحت شجر التنوب المخروطي
عبر الجمنازيوم
عبر الصالون المسدل الستائر
عبر القاعات العامة، وقاعات المكاتب ـ
أكون سعيدًا بابن البلد، وسعيدًا بالأجنبي
سعيدًا بالجديد والقديم
سعيدًا بست البيت، وبالمتبرّجة
سعيدًا بسيدة الكويكز وهي تنزع قلنسوتها، وتتحدث متناغمة الكلمات
سعيدًا بالكلمات المخلصة من الوعظ الميثودستي ـ
المتصبب عرقًا، في اجتماع المخيم.
ناظرًا إلى واجهات الدكاكين في برودواي طيلة صدر النهار ـ
مفلطحًا أنفي على الزجاج الثخين ـ
جوَّابًا ما بعد الظهر نفسه ـ
ووجهي مرتفعٌ نحو الغيوم، أو متطامن على الدرب أو الشاطئ
ذراعي اليمين وذراعي اليسار حول صديقين لي، وأنا بينهما
عائدًا إلى بيتي مع فتى الغابة الصامت الأسمر الخدين
(إنه يركب ورائي مرتديًا بدلة النهار المتهدلة الحواشي).

(١) الملحة: موضع فيه ملح ترتاده الوحوش وتلعقه لما فيه من ملح.

بعيدًا عن المرابع المأهولة.. أفقد آثار الأوابد، أو أثر الخُفِّ.
وعند سرير المستشفى أناول الليموناد مريضًا محمومًا
وفي الليل، والكل نائم...
أتفحص على ضوء شمعة، الجثة وهي في التابوت
مبحرًا إلى كل ميناء، مقايضًا ومغامرًا
مندفعًا مع الجمع الجديد بكل شوقي وخفتي
ساخطًا على من أكره ـ
مستعدًا في جنوني أن أطعنه بمدية.
وحيدًا في موهن الليل، في باحتي الخلفية ـ
وقد غادرتني أفكاري منذ أمد مديد
مطوّفًا في تلال جوديا العتيقة، والإله الرحيم إلى جانبي
مسرعًا عبر الفضاء، مسرعًا عبر السماء والنجوم
مسرعًا وسط التوابع السبعة، والدائرة الوسيعة ـ
ونصف قطرٍ من ثمانين ألف ميل،
مسرعًا مع المذنبات، أقذف كراتٍ ناريةً
حاملاً الهلال الطفل الذي يحمل أمه المكتملة في أحشائه
عاصفًا/ متمتمًا/ مخططًا/ عاشقًا/ حذرًا
مفرِغًا/ مالئًا/ ظاهرًا/ مستسرًا
انني أرود ـ كل نهار وكل ليل ـ دروبًا كهذه.

إنني أزور بساتين الأجواء، وأنظر إلى النتيج

أنظر إلى مئات ملايين وهي تنضج.

وإلى مئات ملايين الملايين وهي تخضرُّ

أحلّق تحليقات الروح المرهفة السيالة

وسبيلي يمتد تحت ارنانات رصاصة الشاقول

آخذ المادي، وغير المادي

لا أحد يوقفني.

أنا لا أرسي سفينتي إلا لينطلق سُعاتي

مبحرين بعيدًا...

أو آتين لي بالغنائم

أمضي لأصطاد حيوانات الفراء القطبية، والفقمة

أثب متحديًا إلى أعلى الصاري

متعلقًا بالهشيم والسماء

وأرقى...

وأتخذ مكاني، إلى آخر الليل، في عشّ الغراب(١)

نحن نبحر في البحر القطبي

ثمة ضوء عميم...

وعبر الفضاء الشامل، أتمدد محدّقًا في الجمال المدهش

كتل الثلج الهائلة تجتازني، وأجتازها

---

(١) عش الغراب، مرقب صغير في أعلى الصاري.

والمهشد صافٍ آنّى نظرت
الجبال ذات القنن البيض تبدو في البعيد...
إنني أتشوّف إليها...
نحن نقترب من ميدان معركة سنخوضها قريبًا
نحن نمر بمواقع المخيم المتقدمة...
نمر حذرين، خفاف الخطى
أو ندخل ضواحي مدينة واسعة مهدمة
حيث الكتل المتساقطة، والأبنية المنهارة، أعظم من كل مدن العالم الحية.
إنني رفيق حر
أخيّم محتلاً أضواء الحراسة
أطرد العريس من مضجعه، وأظل مع العروس
وأضمها قويًا، طوال الليل، إلى فخذي وشفتي
صوتي هو صوت العروس، والصرير على حاجز السلّم
إنهم يلتقطون جسدي الفحل، وهو يقطر غريقًا.

إنني أفهم قلوب الأبطال الكبيرة
وشجاعة الحاضر وكل الأزمنة
كيف رأى الربّان حطام الباخرة المزدحمة
والموت يطاردها في العاصفة
وكيف اندفع مستميتًا

دون أن يتراجع ولو قليلاً
وكيف كان وفيًا للأيام، وفيًا لليالي
وكيف كتب بالطباشير حروفًا كبيرة على السفينة:
«اصبروا، لن نترككم».
كيف تتبّعهم، ثلاثة أيام، دون أن يكلّ
وكيف أنقذ الغرقى أخيرًا.
وكيف كان مرآى النسوة الهتيكات الأثواب ـ
حيث نقلن بالزورق من قبورهن المهيأة،
وكيف كان الأطفال الصامتون ذوو الوجوه الشائخة
كيف كان المرضى المنقولون
والرجال ذوو الألسنة السليطة، واللحى غير الحليقة.

كل هذا أبتلعهُ، إنّ له طعمًا لذيذًا، إنه يصيح لي...
أنا هو الانسان:
لقد تعذّبت
لقد كنت هناك.
هدوء الشهداء، ولا مبالاتهم
الأم المحكوم عليها بدعوى السحر ـ
والتي أُحرقت بالخشب اليابس، وأطفالها ينظرون إليها،
والعبد الذي تطارده الكلاب ـ
ينحني على السياج، متدافع النفاس، مغمورًا بالعرق

والأشواك تخز ساقيه وعنقه كالإبر...

وأزيز الإطلاقات...

كل هذا أشعر به، إنه أنا

إني أنا العبد المُطارد

الذي يختلجُ ألمًا من عضّ الكلاب

الجحيم واليأس يسيطران علي...

ويندفع خلفي رصاص القناصة، متكررًا

إنني أتشبث بالسياج

وأضلاعي الجريحة، تنزُّ هزيلةً

إنني أسقط على القصب والحجر

والفرسان يستحثّون جيادهم، ويتصاحون مقتربين

أذناي الدائختان تسمعان شتائمهم ـ

وهم يسوطونني بعنف على رأسي.

إنني أمرُّ بالعذاب، كما أغيّر ملابسي

أنا لا أسأل الجريح عن جرحه، فأنا هو الجريح

وقلبي يزرقّ، وأنا أعتمد على عصاي، وأراقب.

أنا رجل الإطفاء المهشّم، ذو الصدر المهشّم

الدفين تحت الجدران الهاوية

أحسُّ بالوقد والدخان

وأسمع صيحات رفاقي الهادرة

أسمع وقع فؤوسهم البعيد

لقد أزالوا الأعمدة، وهم يرفعونني بلطف

هكذا أتمدد في الهواء الليلي والقميص الأحمر

والصمتُ المخيمُ، لي

هكذا أتمدد أخيرًا،

متبعًا.

دون ألم، ودون لاسعادة

الوجوه حولي بيض جميلة

والرؤوس بلا خوذ الحريق

والجمع الراكع يشحب على ضوء المشاعل

البعيدون والموتى، يبعثون

إنهم يبدون كدائرة الساعة، أو يتحركون كعقاربها

وأنا الساعة نفسها.

وأنا المدفعي القديم، أحدّثكم عن قصف قلعتي

إنني هناك ثانيةً

ثانيةً، صوت الطبول

ثانيةً، هجمة المدافع

ثانيةً، رد المدافع في أذنيَّ المنصتَين.

إنني أشارك

أرى الكل وأسمع الكل
الصرخات، واللعنات، والهدير، وهتف القذائق السديدة
ونقّالة الاسعاف تمر بطيئةً، وهي تنز قَطْرَها الأحمر
والعمال يبحثون عما هدمه القصف، ليعيدوا بناءه
وتساقط القنابل خَلَلَ السقف الممزّق
والانفجار الذي يشبه المروحة
وتطايرُ الأطراف والرؤوس والصخر والخشب والحديد، في الهواء
ثانيةً...
حشرجات الجنرال المحتضر وتلويحة يده الغاضبة
ها هو ذا يحشرج في دمه المتخثر:
لا تهتم بي...
اهتمّ، بالتحصينات.

[٣٤]

الآن أخبركم
بما عرفت في تكساس أيام يفاعتي
(لن أخبركم عن سقوط ألامو)
(إذ لم ينج أحد ليخبر عن سقوط ألامو)
(والمائة والخمسون ما يزالون خرسًا في ألامو)
إنها حكاية الاغتيال العمد لأربعمائة واثني عشر شابًا:

في تقهقرهم، كوّنوا تحصيناتهم

وكان الثمن الذي ربحوه مسبقًا

تسعة أضعاف عددهم

تسعمئة من الأعداء الذين يحاصرونهم.

لقد قُتل عقيدهم، ونفدت ذخيرتهم.

ففاوضوهم على استسلام مشرّف

وأخذوا من العدو عهدًا وميثاقًا

وسلّموا أسلحتهم

وعادوا أسرى حرب.

كانوا مجد الجوّالة

لا يضاهيهم أحد في الجواد والبندقية والأغنية والعشاء والغضزَل

كانوا ضخامًا، عنيفين، كرماء، لطفاء، فخورين، محبين

ملتحين، مسفوعين

يرتدون ملابس الصيادين

وكلهم لا يتعدى الثلاثين.

في صباح اليوم التالي

جيء بهم، مفارزَ

وكانت المجزرة.

كان فجرًا صيفيًا جميلاً.

بدأت المجزرة في الخامسة، وانتهت في الثامنة

لم يطع أحد منهم الأمر بالركوع
بعضهم اندفع مجنونًا يائسًا
وبعضهم ظل واقفًا ثابتًا
قليل هم الذين سقطوا فورًا، والرصاص في صميم قلوبهم
كان المشوّهون والمبتورون يحفرون في التراب.
هكذا رآهم القادمون الجدد هناك.
وحاول أنصاف القتلى الزحف بعيدًا
لكنهم طُعنوا بالحراب، وهُشموا بالأخامص
وأمسك ابن سابعة عشرة منهم بقاتله ـ
فما خلّص القاتلَ إلا اثنان...
وكان الثلاثة ممزقين، ملطخين بدم الفتى.
في الحادية عشرة بدأ حرق الأجساد.

ها هي ذي حكاية الاغتيال العَمْد لأربعمائة واثنى عشر شابًا.

[٣٥]

أتريدون أن تسمعوا عن معركة بحرية قديمة؟
أتريدون أن تعرفوا من انتصر، في ضوء القمر والنجوم؟
إذاً...
فاسمعوا إلى حكاية والد جدتي، البحّار، الذي رواها لي:

لم يكن عدونا هينًا

(هكذا قال)

كان انكليزيًا شجاعًا، لا أشدّ ولا أوثق منه.

ولم يكن ـ ولن يكون ـ أشدّ وأوثق منه.

اندفع نحونا، مرعبًا، في المساء الهابط

اشتبكنا معه

وتشابكت المدافع ببعضها

وكان قائد سفينتنا يطلق بيديه النار، مسرعًا

لقد تلقينا قنابل زنة ثمانية عشر رطلًا، تحت الماء

وعلى سطح مدافعنا السفلى انفجرت قنبلتان ضخمتان، في الاطلاق الأول.

قتلتا كل من حولهما، وتفجرتا فوق رؤوسنا

حاربنا في الغروب، حاربنا في الظلام.

وفي العاشرة ليلًا، كان القمر مرتفعًا...

وبدأ الماء يتسرب إلى سفينتنا...

خمسة أقدام من الماء

وأطلق القائد المسلح سراح السجناء المقيدين

ليمنحهم فرصة النجاة بأنفسهم

ومنع الحرس التنقل من مخزن السلاح وإليه

فقد رأوا وجوهًا غريبة لا يعرفون بأيّها يثقون.

اضطرمت النار في سفينتنا

وسألتنا الأخرى إن كنا نريد ملجأ

أو أن أعلامنا قد أصيبت

أو أن المعركة قد انتهت.

الآن أضحكُ مرتاحًا، فأنا أسمع صوت رئيسي الصغير،

«نحن لم نصب...»

«لقد بدأنا الآن ـ حسب ـ حصتنا من القتال»

ثلاثة مدافع فقط يمكن استخدامها

أحدها صوّبه الكابتن بنفسه ناحية صارية العدو الرئيسية

والاثنان محشوان جيدًا بالعناقيد والعبوات...

ثلاثة مدافع...

تُسكت بنادقه، وتُخلي سطوحه.

أعالي السفن وحدها صمدت أمام بطاريتنا الصغيرة هذه

صمدت خلال المعركة بأسرها...

تتوقف المعركة لحظة

كان الماء يتسرب إلى سفينتنا، ويغمر المضخات

وكانت النار تسري إلى المخزن البارود

أصابت قذيفة إحدى المصفحات فقذفت بها بعيدًا

واعتقدنا أننا غارقون...

ولكن الكابتن الصغير كان يقف هادئًا...

كان مطمئنًا، مطمئن الصوت

وكانت عيناه تمنحاننا من النور أكثر مما تمنح المصابيح القتالية
في الثانية عشرة...
وتحت أشعة القمر...
استسلموا لنا.

[٣٦]

متمددًا، وساكنًا، يرقد منتصف الليل
شبحان عظيمان لسفينتين، بلا حراك، فوق صدر الماء
سفينتنا المنخوبة بالقذائف تغرق شيئًا فشيئًا
نحن نستعد للانتقال إلى السفينة التي استولينا عليها
والقبطان يصدر أوامره رزينًا
أبيض الوجه مثل ورقة
وقريبًا، جثة صبي القُمْرة
والوجه الميت لبحّار عجوز، ذي شعر أبيض، وسالفين متقني التمشيط
واللهب يندلع من كل شيء، مرتفعًا، وهابطًا
والصوت المبحوح لضابطين أو ثلاثة ما يزالون قادرين على العمل
أكداس لا شكل لها من الأجساد
وأجساد منفردة
ومِزَقٌ من اللحم على الصواري والأعمدة
حبال مقطّعة، وحواجز متدلية

وضربات خفيفة من نعومة الأمواج

مدافع سود هامدة ونثير من أكياس البارود، ورائحة نفّاذة

نجوم واسعة قليلة، تشعّ حزينة صامتة

أنفاس رقيقة من نسيم البحر...

روائح السعد، والحقول القريبة

رسائل الموت يتعهّدها الناجون

هسيس مبضع الجرّاح، وأسنان منشاره الماضية في اللحم

اندفاق الدم المنهمر، والصرخة الوحشية القصيرة

ثم الأنين الطويل الكابي...

ها هو ذا، ما لا يستعاد.

[٣٧]

أيها المتقاعسون، انتباهًا!

انظروا إلى أسلحتكم.

ها هم يتكأكأون عند الأبواب المستولى عليها

لقد أصابني مسّ

إنني أجسّد كل حضور

حضور المطرودين والمعذبين

وأرى نفسي في السجن كهيأة إنسان آخر

مستشعرًا الألم الكالح المتطاول

إن حراس السجن يتنكّبون بنادقهم ويراقبون... بسببي

أنا من يُطلَق في الصباح، ويقبع وراء القضبان في المساء

ليس ثمة متمرد يسير إلى السجن مقيّد المعصمين ـ

إلا وأنا المقيّد معه، نسير جنبًا إلى جنب

(أنا الأقل فرحًا هناك، والأكثر صمتًا)

(حيث العرق يتحدر على شفتيّ المرتجفتين)

ليس ثمة من فتى يُقبض عليه بدعوى اللصوصية ـ

إلا وأنا أذهب أيضًا، وأحاكَمُ، ويُحكمُ عليّ

ليس ثمة من مريض بالكوليرا في حشرجته الأخيرة ـ

إلا وأنا متمدد في حشرجتي الأخيرة ـ

وجهي رماد

وعصبي مستوفز

وبعيدًا عني يهرب الناس.

السائلون يتجسدون فيّ

وأنا متجسد فيهم

إني أمدّ قبعتي...

أجلس، ووجهي ناطق بالخجل...

وأسأل.

[٣٨]

كفى، كفى، كفى

لأمر ما، صُدِمتُ

إمنحني وقتًا قليلاً، بعد ارتطام رأسي

وبعد هجعاتي، وأحلامي، وتثاؤباتي

إنني أكتشف نفسي على شفا خطأ صغير.

إمنحني وقتًا قليلاً

حتى أستطيع أن أنسى الساخرين والمَهانات

حتى أستطيع أن أنسى الدموع المنهمرة وضربات الهراوات والمطارق

حتى أستيطع أن أنظر، نظرة منفصلة، إلى صَلبي وتتويجي الدامي.

أتذكر الآن

وأستأنف المسيرة

القبر الصخري يضاعف ما فيه، وأي قبر آخر

الجثث تنهض، والجراح تبرأ، والأغلال تتساقط عني

إنني أندفع قدمًا، مزودًا بقوة جبارة، موكبًا لا ينتهي

سنخترق البر وشواطئ البحر، ونجتاز كل الحدود

وسوف تكون البراعم قبعاتنا، نماء آلاف السنين.

أيها الطلبة!

أحيّيكم

فلتمضوا قُدمًا!

ولتستمروا في تعليق حواشيكم

ولتستمروا في تساؤلاتكم.

[٣٩]

هذا المتوحش، الأنيس، المتدفّق، من يكون؟

أهو ينتظر المدينة، أم أنه قد تجاوزها وتملّكها؟

أهو جنوبي غربي، ترعرع في البريّة؟

أهو كندي؟

أهو من بلاد المسسبي؟ أيوا، أوريغون، كاليفورنيا؟

الجبال؟ حياة البراري؟ حياة الغابات؟

أم هو من البحر بحّار؟

أنّى ذهب، رحّبت به الرجال والنساء وأحبتهُ

أحبت أن يحبها، أن يلمسها، أن يتحدث إليها، ويظل معها.

تصرف بلا قانون ـ

مثل نثير الثلج...

كلمات بسيطة كالعشب

شَعر غير مَشيط، ضحِكة، وسذاجة

أقدام خفيضة الخَطو

سيماء عادية

خصال عادية، وانبثاقات

إنها تنحدر في أشكال عديدة من أنامله

إنها ممتزجة برائحة جسده وأنفاسه

إنها تحلّق مع نظرة عينيه.

[٤٠]

يا تَباهيَ نورِ الشمس...

لا أريدُ نُعماكَ، فامض عنّي

إنك تضيء السطوح وحدها

أما أنا، فأقتحم السطوح والأعماق أيضًا.

أيتها الأرض...

يبدو أنك تبحثين عن شيء في يدي

قد أقول كيف أحبكم، لكني لا أستطيع.

يا رجل، ويا امرأة

وقد أقول ما فيَّ وما فيكم، لكني لا أستطيع

وقد أقول عن ذلك النبض الذي يملأ لياليَّ ونهاراتي.

انتبهوا!

إني لا أعطيكم محاضرات، أو صدقةً يسيرة
ولئن أعطيتُ، لأعطينَّ نفسي

أيها العاجزُ، أطلقْ ركبتيك من عقالهما
إفتح لي أضلاعك لأنفخ فيها الجسارة
أبسط راحتيك، وارفع مغاليق جيوبك
فلدي الكثير...
وكل ما لدي، أمنحُهُ.

لا أسألك من تكون، فلا يهمني هذا
أنت لن تفعل شيئًا
ولن تكون شيئًا
إلا ما جَبَلَتُكَ عليه.

لكادح حقل القطن، أو منظِّف المراحيض
قبلة أليفة على الخد اليمين.
وفي روحي، أقسم، أنني لن أحزنه أبدًا.

للنساء المهيآت للإخصاب، أهيئ أطفالاً أعظم وأرشق
(إنني أتدفق اليوم بجوهر جمهوريات مقبلة أكثر كِبرًا)

إلى كل محتضر ثمة

أُسرعُ، وأُدير مقبض الباب

وأضع ملابس الفراش أسفل السرير

وأدع الطبيب والقسيس يغادران إلى منزليهما.

أمسكُ بالرجل الذي يهوي...

وأرفعه بإرادة قاهرة

آه، أيها البائس، ها هي ذي عنقي

ووالله لن تسقط

اعتمدْ ـ بكل ثقلك ـ علي.

إنني أُفعمك بأنفاس هائلة، إنني أنهضك

وكل حجرة في المنزل أملؤها بقوة مسلحة

بأحبائي، محيِّري القبور

ثم...

فلأكوننّ معهم، حرسك طوال الليل

ولن يجرؤ أي مرض أن يمسَّكَ

لقد عانقتك، فامتلكتك

وعندما تستيقظ صباحًا ـ

فسوف ترى أن ما أخبرتك هو حق.

[٤١]

أنا من يعين المرضى، الراقدين على ظهورهم لاهثين
وأنا من يأتي للأقوياء بالعون الأكثر إلحاحًا.

لقد سمعت ما قيل عن الكون
سمعته، وسمعته، منذ آلاف السنين.
إن الكون جيد، ما دام سائرًا ـ
لكن أهذا كل شيء؟

في البداية أجيء
مزايدًا على المزايدين الشيوخ الحذرين
متّخذًا لنفسي أبعاد يهوه نفسها
وطبعةً من كرونوس، وزيوس وبيلوس وبراهما وبوذا
وفي محفظتي: مانيتو طليقًا، واللّه على ورقة، والصليب محفورًا
مع أودين ومكسيتلي ذي الوجه البشع، وكل معبود ووثن
معتبرًا إياهم، كما هم، دون أن أمنحهم قيمة سَنتٍ أكثر
معترفًا بأنهم قد عاشوا، وأدّوا أعمال أيامهم السالفات
(لقد حملوا الغذاء إلى الطيور الزُغب التي عليها الآن أن تنهض،
وتطير، وتغرّد بنفسها).
متقبّلاً التخطيطات الالهية الأولى، لأملأ فراغها، في نفسي

ولأوزّعها مجّانًا، على كل رجل وامرأة ممن أرى

مكتشفًا الكثير من المصمّم، وهو يصمّم هيكل المنزل الخشبي

مقدّمًا له مطامح جديدة، وهو يعمل بمطرقته ومسحاجه، كشيف الذراعين.

إنني لا أعترض على الرؤى الخاصة ـ

معتبرًا حلقة دخان

أو شعرةً على ظاهر يدي ـ

أمرًا غريبًا كأي رؤيا.

إن فتيان المطافئ، وسلالم الحبال والكلاليب ـ

ليسوا أقل شرًا من آلهة الحروب القديمة

مفكّرًا بأصواتهم التي تخرم الخرائب

وبأطرافهم التي تجتاز آمنةً ألواح السقف المتفتحة

وبجباههم البيض ـ

ناصعةً، سالمةً، خلل اللهيب.

إنني مع زوجة الميكانيكي التي ألتصق بحلمتها، شفيعًا لكل وليد.

ثلاثة مناجل ـ

تئزُّ صفًا واحدًا من ثلاث زوايا ـ

حيث القمصان تخفق من الخصور.

والسائق ذو الأسنان الطويلة والشعر الأحمر

يغفر خطايا الماضي والمستقبل.

يبيع كل ما يملك، مسافرًا على قدميه.

ليدفع أجور المحامين عن شقيقه

وليجلس إلى جانبه حيث يُحاكم بدعوى التزوير.

عليّ أن أنثر كل ما يُنثر

لكني لما أستطع أن أؤدي بعد، ولو قدرًا ضئيلاً.

الثور والخنفساء لم ينالا بعد نصف عبادتهما

والدّمن والمزابل هي أكثر قابلية للحب، مما كان يحلم به.

لا أتحدث عن الخارق

لكني أنتظر زمني لأكون أحد المتفوقين

وسوف يكون اليوم لي ـ

حين أفعل الخير قدر ما أستطيع... فأكون خارقًا

وحقِّ حياتي، إنني الآن لخالقٌ.

أضع نفسي هنا، في الرحم المُسترَق للظلال.

[٤٢]

صيحة في الجمعْ...

إنه صوتي، جهوريًا، مندفعًا، وباتًّا

تعالوا يا أطفالي

تعالوا يا أولادي وبناتي، ونسائي، وأهل بيتي، وخلصائي

إن العازف يتقدم الآن، بعد أن أتم تمهيداته، في الداخل

ها هي ذي الأوتار المستجيبة ذات الأصابع الحرة

إنني أحس عليها نبركم العالي، وصمتكم

رأسي على عنقي يدور

والموسيقى تدور، لكن ليس من الأرغن

الناس حولي، لكنهم ليسوا أهل بيتي.

أبدًا هي الأرض الصلدة

أبدًا هم الطاعمون والشاربون

أبدًا هي الشمس الطالعة والشمس الغاربة

أبدًا هو الهواء، والمد المستمر

أبدًا هي نفسي

وأبدًا هم جيراني، فرحين، أشرارًا، حقيقيين

أبدًا هو السؤال الذي لا يُشرَح

أبدًا هو الإبهام الذي يتلقى الوخز

وأبدًا هي أنفاس الأذى والظمأ

وأبدًا هو توقعُ السيئ.. ها.. ها... حتى نجد مختبَأ الكائد

أبدًا هو الحب، وماء الحياة المنتحب

أبدًا هو الضماد على الذقن، وأبدًا هي مَسَاندُ الموتى.

هنا، وهناك، يسيرون، والدولار الفضة على أحداقهم

ليطفئوا جشع المعدة، أما الأدمغة فلها ما لها.

إنهم يبتاعون التذاكر، يأخذون، ويبيعون، لكنهم لا يذهبون ـ
ولو مرة إلى العيد
كثيرون، يتصببون عرقًا، يحرثون ويدفعون المراكب ـ
ثم يمزحون حين يتسلمون الأجر...
وقليلون، يملكون مستريحين، ثم يطالبون بالغلال.
ها هي ذي المدينة
وأنا أحد مواطنيها
لي جواذب الآخرين، السياسة/ الحروب/ الصحف/ المدارس/
ورئيس البلدية/ والمجالس/ والمصارف/
والأسعار/ والسفن التجارية/ والمصانع/
والبضائع/ والمخازن/ والأملاك.
فتيات المانيكان الصغيرات
يبحرن، دائرات، بياقاتهن، ومعاطفهن الطويلة
إنني أعرفهن (لسن ديدانًا أو براغيث، طبعًا)
إنني أحترم طبعات نفسي
فالضعيف والضحل خالدان فيّ.
وما أقول وأفعل، ينتظرهما أن يقولاه ويفعلاه
وكل فكرةٍ تولد فيّ، تولد فيهما.

أعلمُ حق العلم أنانيتي
أعرف أشعاري النهمة، فلن أكتب أقلّ منها

وسوف تلتقيك، كائنًا من تكون

مليئةً بنفسي.

أغنيتي هذه، ليست أغنية مكرورة

إنها الأغنية التي تتساءل وتتوثّب

لتأتي بهذا الكتاب، مطبوعًا مجلّدًا...

لكنْ، ماذا عن الطبّاع، وصبي الطبّاع؟

ثمة الصور الفوتوغرافية الجيدة...

لكن ماذا عن زوجتك أو صديقك... بين ذراعيك لصيقين؟

السفينة السوداء مزوّدة بالحديد...

مدافعها الجبارة في أبراجها

لكن ماذا عن جسارة القبطان والمهندسين؟

في المنازل، الأطباق، والطعام، والأثاث...

لكن ماذا عن المضيف، والمضيفة، ونظرات عيونهما؟

السماء ثمة...

لكن، أهي هنا، أم عند الباب الآخر، أو عبر الطريق؟

قدّيسو التاريخ وحكماؤه...

لكن، ماذا عنك، أنت؟

الطقوس، والأطماع، والالهيات...

لكن ماذا عن الدماغ البشري الذي لا يسبَر؟

ترى، ما العقل؟

ما الحب؟

ما الحياة

[٤٣]

لست أحتقركم، يا قساوسة كل العصور وكل العالم

إيماني هو الايمان الأعلى، والايمان الأدنى

فيه العبارات كلها، القديمة والجديدة، وما بينهما.

أومن بأني سأعود إلى الأرض بعد خمسة آلاف سنة

منتظرًا إجابة النبوءات

مقدّمًا القرابين إلى الآلهة

عابدًا الشمس

مؤلّهًا الصخرة الأولى، أو الجذل الأول

مقيمًا طقسي، متناولاً العصي في دائرة السحر

معيّنًا اللاما أو براهما، وهما يرتّبان قناديل الأصنام

راقصًا في الشوارع، في موكب تقديس الفحولة

متقشّفًا، متصوّفًا في الغابة

مكترعًا نبيذ العسل من قفّ الجمجمة

محبًا لشاستا، وڤيدا، والقرآن

سائرًا في القباءِ الخشبن، مطعونًا بالأحجار والسكاكين

وأنا أدقّ طبل الأفعى

متقبلاً الانجيل، وذاك الذي صُلب، مؤمنًا بأنه إلهيّ

راكعًا في القداس

أو واقفًا في الصلاة اليوريتانية

أو جالسًا صابرًا على مقعد الكنيسة

مرعدًا مزبدًا، في نوبة جنوني

أو منتظرًا، كالميت، حتى أتوب إلى نفسي

ناظرًا إلى الأرصفة والأرض

أو خارج الأرصفة والأرض

إنني من أولئك الذين يديرون دورة الدورات،

ومن عصبة القوة الجاذبة والطاردة...

أستدير وأتحدث كمن يصدر أوامر بالمهمات، قبل الرحيل.

أيها الشكّاكون..

أيها الكئيبون، والمطرودون

أيها الملحدون

أيها الهمّازون، الذين بلا قلب

أعرفكم واحدًا واحدًا

أعرف بحر العذاب والشك واليأس واللاعقيدة.

كيف تتخبّط الديدان الشريطية!

كيف تتلوى سريعةً كالبرق.

متدفقةً بالدم
لتهدأي، أيتها الديدان الدموية، الشكّاكة
إن مكاني بينكم، مثلي في أي مكان آخر
الماضي هو دافعكم، وأنا مثلكم
وكل ما لم يجرَّب، وما سيأتي بعده
لكني أعرف أنه سينال البرهان، وأنه لن يخطئ
كل من يمر، يعتبره
وكل من يقف، يعتبره
ولن يغفل عن أحد.

لن يغفل الفتى الذي مات ودفن
ولا الفتاةَ التي ماتت فدفنت إلى جنبه
ولا الطفلَ الذي ينظر من فُرجة الباب ـ
ثم يُسحب إلى الداخل، فلا يرى، بعدُ.
ولا الشيخَ الذي عاشَ بلا غاية.
ولا ذاك المسلولَ في البيت البائس ـ
بسبب شرب «الروم» والاهمال.
ولا المذبوحين والمحطّمين الذين لا يحصى لهم عدد
ولا الغِرارات الطافية بأفواه مفتوحة تنتظر الطعام.
لن يُغفل أيَّ شيء على الأرض
أو في القبور القديمة

ولا أي شيء في أجواز الفضاء

لا الحاضر

ولا أهون ما نعرفه شأنًا..

[٤٤]

وقوفًا...

لقد آن الآن الذي أشرح فيه نفسي.

المعروف أرميه بعيدًا

وفي المجهول، أقذف بكل الرجال والنساء...

قدُمًا، معي

الساعة تعيّن اللحظة

لكنْ، ماذا تعَيِّنُ الأبدية؟

لقد طال ما استنفدَنا الترليونات من شتاء وصيف

وما تزال أمامنا ترليونات، أمامها ترليونات.

جاءتنا الولادات بالغنى والتنوع

وسوف تأتينا ولادات جديدة بالغنى والتنوع.

لا أسمّي أحدًا عظيمًا، وأحدًا حقيرًا

فذاك الذي يملأ عصره ومكانه، ندٌّ لأي كان.

يا شقيقي، ويا شقيقتي

أكان البشر إزاء كما ذوي غدر وغيرة؟

أنا آسف لهذا، فهم لم يكونوا إزائي ذوي غيرة

كانوا جميعًا لطفاء معي.

إنني لا أقيم وزنًا للمرائي

(ما الذي أصنع بالمرائي؟)

أنا قمة المنجَز، ومتضمّن الآتي

قدماي تبلغان السلم

على كل درجة، عصورٌ

وبين كل درجة وأخرى، عصورٌ

كل ما خلّفته ورائي، مضى، وأنا ما زلت أعلو وأعلو

وفي كل ارتقاءة تنحني الأشباح خلفي

وفي القرار أرى العدم الهائل.

وأعرف أنني كنت هناك

لقد انتظرت، وأنا دائمًا غير مرئي

ورقدتُ في ضباب السبات

واغتنمت زمني...

ولم أعبأ بالكاربون العفن.

لقد احتُضنت طويلاً طويلاً

وهُيئتُ خير تهيئة...

وشريفةً صديقةً كانت الأذرع التي ساعدتني

لقد أبحرتُ بمهدي كل العصور

مجذفةً، مجذفةً، مثل بحارة فرحين

وأخلتْ لي النجوم مكانًا بينها.

وقبل أن تلدني أمي، قادتني أجيال

وما كان رحمي خاملًا، وما كذب أهلهُ

لقد تكوّر السديم من أجله

وتطامنت طبقات الأرض ليستريح عليها

ونقلته وحوش هائلة بأفواهها، ثم حطّته بعناية

لقد استخدمتْ كلَّ القوى لتكمّلني وتبهجني.

الآن...

أقف على هذه البقعة، جبّار الروح.

[٤٥]

آهٍ أيها الشباب، أيتها اللدانة المندفعة!

آهٍ أيتها الرجولة، المتّزنة، المزهرة، الممتلئة!

عشّاقي يكتمون أنفاسي

يزدحمون على شفتي

وينغرزون في بشرتي

ويدافعونني في الشوارع والقاعات العامة

ويأتونني في الليل عراة

في النهار ينادونني، أهوي

من صخور النهر

متمايلين، لاغطين، فوق رأسي

منادين باسمي من مساكب الزهر، والكروم، والأغصان المتشابكة

مضيئين كل لحظة من حياتي

مقبّلين جسدي قبلاً بلسمية ناعمة

مقدّمين لي ـ دون صوت ـ حفنات من قلوبهم...

أيها العصر القديم، الناهض

مرحبًا بالجلال المقيم للأيام المحتضرة!

لا يعلن كل ظرف عن نفسه، حسب

إنه يعلن كذلك ما يأتي بعده، ومنه.

في الليل أفتحُ كوّتي

وأنظر إلى المنظومات الكونية المنتشرة بعيدًا

فإذا كل ما أراه ـ ولو ضاعفته قدر ما أستيطع ـ لن يبلغ

إلا حافة المنظوماتِ الأبعد

إنها تتسع، وتزيد اتساعًا

إنها تتسع أبدًا...
أبدًا...

لشمسي شمسها التي تدور حولها
وتنضم إلى شريكاتها في دورة أسمى
وتتبعها مجاميع أعظم
تجعل من العظيم في داخلها ذرّة تافهة.

ليس هناك توقّف، ولن يكون ثمة توقّف
وحتى لو تحوّلنا هذه اللحظة، أنا وأنت ـ
والعوالم
وكل ما فوق الأرضين وتحتها،
إلى طوفان شاحب...
فلن ينفع الأمر شيئًا
فلسوف نعود، مرة أخرى، كما كنا
ولسوف نتقدم ـ
أكثر
فأكثر
فأكثر.
صعِّدْ بصرك، قدر ما تستطيع :
ثمة مكان لا يُعَدُّ

موعدي محدد مؤكد

سيكون سيدي هناك

منتظرًا قدومي، راضيًا مرضيًا

وسيكون هناك الرفيق العظيم

العاشق الحق، الذي إليه أتوق.

[٤٦]

أعلمُ أن لدي خير ما في الزمان والمكان

وأعلم أن ما لدي لم يُقَس، ولن يقاس.

إنني أطوف في رحلة سرمدية

(تعالوا أنصتوا جميعًا)

شاراتي: معطف مطر، وحذاء جيد، وعمود قَطَعْتُه من الغابة...

لا صديق لي يرتاح في مجلسه على كرسي

فليس لي كرسي، ولا كنيسة، ولا فلسفة.

أنا لا أقود كل رجل إلى مائدة الطعام، أو المكتبة، أو البورصة

لكني أقود كل رجل منكم وكل امرأة، إلى المرتَفع

يدي اليسرى متشبثة بكم عند الخصر

ويدي اليمنى تشير إلى مشاهد القارات والسبيل الواسع.

لا أستطيع

ولا يستطيع أحد
أن يسلك هذه الطريق، عنكم
عليكم أن تسلكوا هذا الطريق بأنفسكم.

إنه ليس بعيدًا
إنه في متناولكم
ولربما كنتم عليه، منذ ولدتم، لكنكم لم تعرفوا
ولربما كان في كل مكان، من الماء واليابسة.
بُنَي...
لتحمل زوّادتك
ولأحمل زوّادتي...
ولننطلقْ...
لسوف نلقي في مسارنا مدنًا عجيبةً وأممًا حرة
ولئن انهكتَ، فلأحمل العبء كله.
وفي الوقت المناسب، تردُّ لي الجميل نفسه
فنحن لن نستريح، بعد أن انطلقنا.

اليوم، ارتقيت تلًّا
ونظرت إلى السماء المزدحمة
وقلت لروحي:
عندما ننطوي على هذه العوالم

وعلى كل ما فيها من فرح ومعرفة...
فهل ترانا سنكون راضين مكتفين؟
قالت روحي:
لا، ولكننا سنوطئ هذا النَشَز
لنجتازه، ونواصل السير.

أنت أيضًا، تسألني، وأنا أسمعك
أجيبك بأني لا أستطيع أن أجيب...
فعليك أن تجد بنفسك.

إجلس هنيهة، يا بني
ثمة بسكويت لتأكل، وحليب لتشرب
لكن، حين تنام، وتجد نفسك في ملبس عذب
فسوف أقبّلك قبلة الوداع
وأفتح الباب، لتخرج من بعد
كفاك ما رأيت من أحلام تافهة...
إنني أمسح الآن قذى عينيك.
عليك أن توطّن نفسك على الضوء الباهر
وعلى كل لحظة من حياتك.
كفاك اللوح الذي طالما تشبّثتَ به عند الشاطئ
الآن أريدك أن تتكون سبّاحًا جسورًا

أن تقفز وسط البحر
وتعلو ثانية...
تشير لي برأسك، وتنادي
وتندفع ضاحكًا، مع شعرك الطويل.

[٤٧]

أنا معلم الرياضيين،
ذلك الذي يمتد صدره أوسع مني
يبرهن على سعة صدري.
وخير متلقٍّ لأسلوبي، هو من يتعلّم به تدمير معلمه.

الفتى الذي أحبُّ، يصبح رجلًا، لا بقوة مستعارة
وإنما بقوته هو.
أفضّل أن يكون شريرًا
على أن يكون خيّرًا بسبب الإمتثال أو الخوف.
أريده دنفًا بحبيبته
مستمرئًا قطعة اللحم التي يأكل.
يجرحه الحب الخاسر والإهانة بأشد ما يجرح الفولاذ المرهف
أريده سبّاقًا على الجواد
مقدامًا في القتال

شجاعًا في ضرب عين الثور[1]

ماهرًا في قيادة الزورق الشراعي

رائعًا في الغناء، وفي العزف على «البانجو»

مفضلاً الوجوه الملتحقة وذات الندوب والوجوه المجدورة

على الوجوه الصبيغة.

مفضّلاً الوجوه المسفوعة

على الوجوه التي تتحاشى الشمس.

أدعو إلى الفرار مني

لكن من يستطيع الفرار مني؟

سوف أتابعك، أيًا كنت، منذ هذه الساعة

وسوف تئز كلماتي في أذنيك حتى تفهمها

هذه الكلمات لا أقولها من أجل دولار

ولا تزجيةً للوقت وأنا أنتظر سفينة

(إنك أنت المتحدث، مثلي أنا، تمامًا)

(إنني لسانك، المنعقد في فمك، والمنطلق في فمي)

أقسم لن أذكر الحب والموت في منزل

وأقسم لن أترجم نفسي إلا، له، أو، لها...

هذين اللذين يظلان معي سرًا، في الهواء الطلق.

---

(١) الثور: يعني في الدارجة الأميركية الشرطي كذلك.

إن أردت أن تفهمني، فاذهب إلى الأعالي

أو إلى شاطئ البحر

حيث أقرب بعوضة شرح

وحيث القطرة، ونأمة الموج، مفتاح

وحيث القدّوم، والمجذاف، والمنشار اليدوي، عون كلماتي.

لا أحب الغرفة المسدلة الستائر، ولا المدراس

أحب المساكن الخشنة، والأطفال.

الميكانيكي الشاب، هو الأقرب إلي، إنه يعرفني حقًا

وقاطع الأخشاب الذي يتناول فأسه، ويُعْمِله، سيصحبني طوال النهار

وصبي المزرعة الذي يحرث في الحقول يرتاح لسماع صوتي.

في السفن المبحرة، تبحر كلماتي...

إنني أمضي مع الصيادين والبحّارة

وأحبهم.

الجندي في المخيّم، أو في المسيرة، لي

وفي الليل قد تستصرخني المعركة، ولن أخيّب لهم ظنّا

في تلك الليلة المهيبة

(وقد تكون ليلتهم الأخيرة)

يبحث عني من يعرفني.

وجهي يحكّ وجه الصياد النائم ملتفًّا ببطانيته
والسائق يفكر بي، لن يعبأ باهتزازات عربته
الأم الشابة، والأم العجوز، تفهمانني
والفتاة والزوجة تتركان الإبرة لحظة وتنسيان مكانهما...
إنهم: مع الجميع، سوف يستعيدون ما بلّغتَهم.

[٤٨]

قلت إن الروح ليست سوى الجسد
وقلت إن الجسد ليس سوى الروح
ولا شيء، ولا إله، أعظم للمرء من نفس المرء
ومن يمش قليلاً دون حنان
القابلة، تأتي إلى عملها، دون كلل
إني أرى اليد المتمرّسة تضغط، وتنال المساعدة
وأنا مستند إلى الأبواب المتحركة
أعيّن زمن الولادة، والراحة، والنجاة.
أما أنت أيتها الجثة
فأنا أعتقد أنك سماد جيد
وهذا لن يسوءني
إذ أشم الورود البيض
نامية، ضوّاعة الرائحة

وأبلغ الشفاه المورقة
ونهود البطيخ الصقيلة.

وأنتِ أيتها الحياة...
أظنك خميرة الموتى الكثار
(لا شك أنني قد متُّ عشرة آلاف مرة قبلاً).

ويا نجوم السماء
إنني أسمعك تتهامسين في الأعالي
أيتها الشموس ـ يا أعشاب القبور ـ أيتها التحولات والإتقاءات
إن لم تقولي أنتِ شيئًا، فأنّى لي أن أقول شيئًا.

على البحيرة العميقة في الغابة الخريفية
على القمر الذي يهبط من منحدرات الشفق
أنثر النهار والغسق
على الجذوع السود التي تتعفّن في الدمن
أنثره على أنين التقصف في الأغصان اليابسة.
يمشي إلى جنازته مرتديًا كفنه
أما أنا وأنت، الخاليا الوفاض
فسوف تكون لنا زهرة الأرض.
إن نظرة واحدة إلى حبة الفاصولياء في سَنفَتها، لها معرفة كل الأزمنة

وليس من حرفة أو عمل، لا يصبح فيها الشاب بطلاً

وليس من شيء مهما هان، إلا كان محورًا لعجلات الكون

وأنا أقول لأي رجل وأي امرأة:

لتكن روحاكما مطمئنتين قويتين، أمام ملايين الأكوان.

وأقول لبشر: لا يأخذنكم في اللّه حب الاستطلاع

فأنا المستطلع عن كل شيء، لكني لا أفهمه أبدًا

لا أفهم إن كان أحد أكثر روعةً مني أنا نفسي.

لماذا.. علي أن أرى اللّه خيرًا من هذا اليوم؟

إني أرى شيئًا من اللّه، كل ساعة من الساعات الأربع والعشرين

وكل لحظة في وجوه الرجال والنساء أرى اللّه..

وفي وجهي أمام المرآة.

فانني أرى رسائل من اللّه ملقاةً في الشوارع

وكل رسالة موقعة باسم اللّه...

وأنا أترك الرسائل مكانها

فأنا أعلم أنني حيثما حللت

فإن رسائل أخرى، ستظل تجيء، إلى الأبد.

[٤٩]

وأنت أيها الموت...

أنت يا عناق الفناء...

عبثًا تخيفني.

عاليًا عن القمر

عاليًا عن الليل

أرى في الوميض الشاحب انعكاس شمس الهاجرة

وأنطلق إلى المستمرّ والجوهريّ من كل وليد.

[٥٠]

إن في ذاك ـ لا أعرف ما هو ـ لكنني أعرف أن فيّ

ها هو ذا جسدي المحطّم، المتصبّب عرقًا، يعود هادئًا مبتردًا

فأنام، أنام طويلاً.

أنا لا أعرفه ـ إنه بلا اسم ـ إنه كلمة لم تُقَلْ

إنه ليس في أي معجم، أو نطق، أو رمز.

إنني أدور حول شيء يدور أسرع من الأرض

الخليقة لديه صديقة يوقظني عناقها.

قد أقول أكثر...

الملامح!

إنني أتوسل بأشقائي وشقيقاتي.

أترون يا أشقائي وشقيقاتي

إنه ليس الفوضى، أو الموت

ـ إنه الشكل، والاتحاد، واليقظة ـ

إنها الحياة الأبدية

إنها السعادة.

[٥١]

الماضي والحاضر مستنفدان

لقد ملأتهما وأفرغتهما

إنني ماضٍ لأملأ نصيبي من المستقبل.

أيها المنصت في الأعالي

ماذا تريد أن تبلّغني؟

حدّقْ في وجهي وأنا أستاف هبوط المساء

(تحدث بصراحة، فلا أحد يسمعك)

(وسأبقى دقيقةً واحدةً، حسب)

أتراني أناقض نفسي؟

حسنًا، أنني أناقض نفسي

(أنا واسع، أضم الخضمّ الواسع)

أركزُ على الأقربين، منتظرًا عند الباب

من أتمّ عمل يومه؟

من سيكون الأسرع إلى طعامه؟

من يريد السير معي؟

ألا تتحدث قبل أن أسير؟

لماذا لا تبرهن أنك متأخر جدًا؟

[٥٢]

الصقر الأرقط يمر بي، ويتّهمني

شاكيًا ثرثرتي وتسكعي.

أنا أيضًا، لست مروّضًا، ولو قليلاً

أنا أيضًا غير قابل للترجمة

أطلقُ صرختي البربرية على سقوف العالم.

ضوء النهار الأخير يتريّث لي

معلنًا شَبَهي، بكل ما في غابات الظلال

ويدفعني إلى الأبخرة والغسق.

أرحل كالهواء

وأهز خصلاتي للشمس الهاربة

أهرق لحمي مياهًا، في جداول مسكرة.

أوحّد نفسي بالتراب، لأنجمِ من العشب الذي أحب
فإن أردتني ثانيةً
فابحث عني تحت نعل حذائك.

قد لا تعرف من أكون، وما أعني
لكني سأكون لك العافية
ونقاء الدم ونسيجه.

إن لم تجدني، أولاً، فلا تيأس
إن افتقدتني في مكان، فابحث عن مكان آخر
ولتجدنَني انتظرك في مكان ما.

تاريخ زمني

١٨١٩ ـ ولد ويتمان في ٣١ أيار بـ«وست هيلز ـ لونغ آيلاند».

١٨٢٥ ـ ١٨٣٠ ـ التحق بمدارس بروكلين.

١٨٣٠ ـ ١٨٣٥ ـ اشتغل صبي مكتب، ومساعد عامل طباعة، وعامل طباعة.

١٨٢٦ ـ ١٨٣٩ ـ معلم مدرسة في لونغ آيلاند.

١٨٣٩ ـ ١٨٤٦ ـ أسهم في تحرير صحف متنوعة في لونغ آيلاند وبروكلين ونيويورك.

١٨٤٢ ـ نشر رواية عن العفة: فرانكلين ايفانز أو السكير، قصة كل زمان.

١٨٤٦ ـ ١٨٤٧ ـ رأس تحرير صحيفة «بروكلين ديلي ايغل» وأجبر على الاستقالة بسبب نشاطه في حزب الأرض الحرة.

١٨٤٨ ـ من شباط إلى أيار، رحلة إلى نيوأورليانز مع أخيه «جيف» للعمل.

١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ ـ رأس تحرير صحيفة «فريمان» عن الأرض الحرة.

١٨٥٠ ـ ١٨٥٤ ـ يدير مكتبة للصحف والمجلات، يكتب للصحف، يعمل في النجارة والبناء ومقاولات البيوت.

١٨٥٥ ـ يصدر الطبعة الثانية، متضمنة رسالة امرسون إليه، مع رده الطويل على الرسالة.

١٨٥٧ ـ يرأس تحرير «بروكلين ديلي تايمز» ويغشى المطعم الألماني البوهيمي «بفاف» في نيويورك.

١٨٦٠ ـ يزور بوسطن ليشرف على الطبعة الثالثة «للأوراق» في مطبعة «تاير وألدريدج»، ويخفق أمرسون في اقناع «ويتمان» بحذف قصائد الجنس.

١٨٦٢ ـ يذهب إلى ساحة القتال في فرجينيا في الحرب الأهلية، يجد أخاه في طريق الشفاء، لكن كثيرًا من الرفاق يعانون من جراحهم.

١٨٦٣ ـ ١٨٦٥ ـ يصبح «مضمد الجراح»، يزور المرضى والمصابين في واشنطن، ويخفف من بلواهم، وينمي صداقته بسائق العربة «بيتر دويل».

١٨٦٥ ـ يصدر قصائد الحرب «قرع الطبول». ويضيف مرثاة «البنفسج» بعد اغتيال لينكولن في نيسان. يُفصل في حزيران من وظيفته الحكومية بسبب قصائده الفاضحة.

١٨٦٦ ـ يصدر و. د. أوكونور كتابه عن ويتمان دافعًا عن «أوراق العشب» الفحش.

١٨٦٧ ـ يصدر جون باوزر كتابه «مذكرات عن ويتمان الشاعر والانسان». تصدر الطبعة الرابعة للأوراق.

١٨٦٨ ـ ينشر وليم مايكل روزتي مختارات من «الأوراق» في انجلترا.

١٨٧١ ـ يصدر ويتمان «الرواية الديمقراطية»، والطبعة الخامسة للأوراق.

١٨٧٣ ـ يعاني من اصابة شلل، تموت أمه، ينزح عن واشنطن إلى نيوجيرزي.

١٨٧٦ ـ يصدر الطبعة السادسة من الأوراق في مجلدين، أحدهما بعنوان «نهيران». وفي هذه الفترة يبدأ الراحة وزيارات الاستشفاء إلى مزرعة ستافورد في «تيمبر جريك». تصل المعجبة الانجليزية... «آن جيلشريست» إلى فلادلفيا، وتبدأ صداقة طويلة مع ويتمان.

١٨٧٩ ـ يرحل غربيًا إلى روكيز.

١٨٨٠ ـ يزور دكتور ر. م. بيوك في كندا.

١٨٨١ ـ يصدر الطبعة السابعة للأوراق في بوسطن، حيث صودرت، وتحول النشر إلى فلادلفيا.

١٨٨٢ ـ يصدر «نماذج من الأيام».

١٨٨٣ ـ يصدر دكتور بيوك كتابه «والت ويتمان».

١٨٨٤ ـ يشتري في مايكل ستريت بكامدن ـ نيوجرسي.

١٨٨٨ ـ يشتد عليه الفالج. ينشر «أغصان نوفمبر». يبدأ هوراس ترويل بتسجيل زياراته.

١٨٨٩ ـ يصدر الطبعة الثامنة للأوراق

١٨٩١ ـ يصدر الطبعة التاسعة للأوراق، أو «طبعة فراش الموت».

١٨٩٢ ـ توافيه المنية في ٢٦ آذار، ويدفن في قبر مُعَد في «مقبرة هارلي».

«التاريخ الزمني» مأخوذ نصه من كتاب جيمس ميللر «والت ويتمان» ـ ترجمة د. محمد فتي الشنيطي ـ والصادر في ج. م. ع.

المحتويات

هذا الكتاب

كوني هادئةً

رابطة الجأش

- وتبسّمي معي -

فأنا والت ويتمان

حرّ، ومُتَشَهٍّ، كالطبيعة.

لن أهجرك

حتى تهجرك الشمس.

وكلماتي لن تأبى أن تجري وترسل حفيفها لكِ

حتى تأبى المياه أن تجري، لكِ.

وحتى تأبى الأوراق أن ترسل حفيفَها، لكِ.

